أهم رسالة فى علم مقارنة الأديان

رسالة
أبى الربيع محمد بن الليث
من هارون الرشيد
إلى قسطنطين ملك الروم



تحقيق وتقديم
خالد محمد عبده

مكتبة النافذة

رسالة أبي الربيع محمد بن الليث من هارون الرشيد إلى قسطنطين ملك الروم

تحقيق تقديم

خالد محمد عبده

مكتبة النافذة

رسالة أبي الربيع

تحقيق تقديم

خالد محمد عبله

الطبعة الأولى / ٢٠٠٦

رقم الإيداع ٢١٩٢٤ / ٢٠٠٥



الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢شارع الشهيد أحمد حمدى - الثلاثينى - فيصل

تليفون وفاكس: ٧٢٤١٨٠٣

Email : alnafezah@hotmail.com

ترجمة محمد بن الليث

هو: محمد بن الليث الخطيب، ويكنى: أبا الربيع، وكتب ليحيى بن خالد، وله ولاء ببني أمية، ويعرف بالفقيه، وكان بليغا([1])، مترسلا، كاتبا، فقيها، متكلما، بارعا، محارفا ويقال إنه كان من أسمح خلق الله ...

وكانت البرامكة تقدمه وتحسن إليه ..

وله من الكتب:

١- كتاب الهليلجة في الاعتبار.

٢- كتاب الرد على الزنادقة.

٣- **كتاب جواب قسطنطين عن الرشيد.**

---

[1]: روى له ياقوت في معجم الأدباء: وقل محمد بن الليث النحو في الأدب كالملح في الطعام فكما لا يطيب الطعام إلا بالملح لا يصلح الأدب إلا بالنحو..

٤- كتاب الخط والقلم.

٥- كتاب عظة هارون الرشيد.

٦- كتاب يحيى بن خالد في الأدب.

وقيل في خبره غير ذلك من خط ابن حفص:

محمد بن الليث من بني حصن، واسع الكلام، من موالي بني أمية، وكان فيه ميل على العجم، وكانت البرامكة تبغضه لذلك، **وكان واعظًا في رسائله.**

قرأت بخط بن ثوابة:

هو محمد بن الليث، الخطيب، صاحب الرسائل، وهو ابن ادرياد بن ميروز بن شاهين بن ادرهرمز بن هرمز سروشان بن بهمن بن افرندار، ويتصل في نسبه إلى دارا بن دارا الملك وله رسائل مجموعة(٢)..

وذكر صلاح الدين الصفدي سلسلة نسبه كالتالي:

محمد بن الليث بن اذرياذ بن فيروز بن شاهين، يتصل نسبه بدارا بن دارا.

* وذكر الثعلبي في تفسيره عن عبد الرحمن بن أبي حاتم عن أبيه قال:

بعث المتوكل إلى **محمد بن الليث** رسولاً وقد كان بقي مدة في منزله فلمّا أتاه الرسول امتثل فركب بلا روح، خوفاً، فمرّ به رجل وهو يقول:

كم مرّة حفّت بك المكاره   خارَ لك الله وأنت كاره

فلمّا دخل على المتوكل ولاّه مصر وأمر له بمائة ألف وجميع ما يحتاج إليه من

---

[٢]: الفهرست ج١/ص١٧٥.

الآلات والدواب والغلمان ([3])..

وذكر ابن الجوزي طرفا من موعظة محمد بن الليث ، نذكرها لك فيما يلي :

قال ثمامة بن أشرس رفع محمد بن الليث رسالة إلى الرشيد يعظه فيها ويقول:

إن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئا، وقد جعلته فيما بينك وبين الله ، فكيف أنت إذا وقفت بين يدي الله ، فسألك عما عملت في عباده وبلاده؟!

فقلت استكفيت يحيى أمور عبادك!!

أتراك تحتج بحجة يرضاها مع كلام فيه توبيخ وتقريع ، فدعى الرشيد يحيى ، وقد تقدم إليه خبر الرسالة ، فقال:

تعرف محمد بن الليث ؟

قال : نعم.

قال : فأي الرجال هو؟

قال : متهم على الإسلام.

فأمر به فوضع في الحبس دهرا ، فلما تنكر الرشيد للبرامكة ذكره ، فأمر بإخراجه ، فأحضر، فقال له- بعد مخاطبة طويلة- :

يا محمد أتحبني؟!

قال : لا والله يا أمير المؤمنين ..

---

٣ : تفسير الثعلبي ج٢/ص١٣٨.

قال: تقول هذا!

قال : نعم .

وضعت رجلي في الأكبال ، وحلت بيني وبين العيال ، بلا ذنب أتيت ، ولا حدث أحدثت ، سوى قول حاسد يكيد الإسلام وأهله ويحب الإلحاد وأهله ، فكيف أحبك ؟!

قال : صدقت ، وأمر بإطلاقه. ثم قال : يا محمد أتحبني ؟

قال : **لا والله يا أميرا المؤمنين** ، ولكن قد ذهب بما في قلبي.

فأمر أن يُعطى مائة ألف درهم ، فأحضرت ، فقال يا محمد أتحبني؟

قال : أما الآن فنعم ؛ قد أنعمت علي ، وأحسنت إلي .

قال : انتقم الله ممن ظلمك ، وأخذ لك بحقك ممن بعثني عليك (٤)..

وبخصوص رسالته ، المسماة :

((رسالة الحجة البالغة أبي الربيع محمد بن الليث التي بعث بها الخليفة العباسي هارون الرشيد إلى قسطنطين ملك الروم)) يذكر القاضي عبد الجبار ، في تثبيت دلائل النبوة بيانًا لظروف تأليف هذا الكتاب ولمحتواه:

{ وقد كان هارون الرشيد ضغط الروم ، وحاصرهم في بلادهم ، وأذلهم إلى أن أداه الجزية واتقوه بها ، فأخذها منهم ، وكتب إليهم كتابا بيّن لهم توحيد الله ، وانفراده بالقدم ، وصدق نبيه ﷺ، وذكر فيه قطعة كافية حسنة من أعلام النبوة ..... ،

٤: راجع : المنتظم ج٩/ص١٢٧ ، وتاريخ الإسلام ج١٢/ص٢٤.

والكتاب من إنشاء أبي الربيع محمد بن الليث الكاتب القرشي .... وقد ذكر في هذا الكتاب آية الشهب وانقضاض الكواكب ، واستوفى الحجة فيها}.

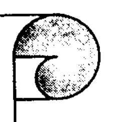
وأخيرًا:

ما قمنا به تجاه هذه الرسالة : هو إعادة نشرها نظرا لندرة وجودها بين يدي الباحثين ، وعدم معرفة الكثيرين بها ، ولما تمثله الرسالة من قيمة علمية في حقل الدرس المقارن ، والعلاقات السياسة في باكورة الدولة الإسلامية ،

على أن هذه الرسالة جديرة بأن تُدرس وتحلل ؛ لاحتوائها على معلومات هامة بشأن دلائل نبوة محمد ، وقضية تحريف الكتاب المقدس.

وكان عمادنا في هذه النشرة على نشرة (أسعد لطفي حسن) والتي قدمها له آنذاك(١٩٣٦) الشيخ محمد المراغي شيخ الأزهر وكتبه:

خالد محمد عبده



رسالة الحجة البالغة أبي الربيع محمد بن الليث التي بعث بها الخليفة العباسي هارون الرشيد إلى قسطنطين ملك الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى قسطنطين عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، فإني أحمد الله الذي لا شريك معه ، ولا ولد له ، ولا إله غيره ، الذي تعالى عن شبه المحدودين بعظمته ، واحتجب دون المخلوقين بعزته ، فليست الأبصار بمدركة له ، ولا الأوهام بواقعة عليه ، انفرادًا عن الأشياء أن يشبهها ، وتعاليا أن يشبهه شيء منها ، وهو الواحد القهار ، الذي ارتفع عن مبالغ صفات القائلين ، ومذاهب لغات العالمين ، وفكر الملائكة ، فليس كمثله شيء ، وله كل شيء ، وهو على كل شيء قدير.

أما بعد ....

فإن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه ، قال لنبيه- صلى الله عليه وسلم - فيما أنزل من آيات الوحي إليه : " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين " .

فرأى المؤمنين من أحسن قوله ، وأفضل فعله ، أن يكون إلى سبيل ربه داعيا ، وبرسوله - صلى الله عليه وسلم - متأسيا ، ولقوله " ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين " موافقا ..

وكنتَ من كتب الله المنزلة ، وآياته المفسرة ،خَلقه الكثير، بحيث رجا أمير

المؤمنين استماعك لموعظته ،وانتفاعك بمجادلته انتفاع بشر كثير ، وخلق عظيم ، قد بؤت بأوزارهم مع وزرك ، واحتملت من آثامهم إلى إثمك ،فأحَبَّ أن يدعوك ، ومن رجا أن ينتفع بدعوته معك " إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله " .

فإن توليتم عن ذلك رغبة عنه ، أو تركتموه زهادة فيه ، فاشهدوا بأنا مسلمون .

واستمعوا ما أمير المؤمنين واصف لكم ، ومحتج به إن شاء الله ، بقلوب شاهدة ، وآذان واعية ، ثم اتبعوا أحسن ما تستمعون ، ولا قوة إلا بالله .

فإن الله عز وجل يقول فيما أنزل من كتابه واقتص على عباده :

" فبشر عباد الذين يتبعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب " .

إن الله تبارك اسمه ، وتعالى جده ، وصف فيما أنزل من آياته ، وشرح من بيناته ، الأمم الماضية ، والقرون الخالية ، والملل المتفرقة ، الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى لا برهان لهم بها ، ولا حجة لهم فيها فقال : " يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله ولا الملائكة المقربون " .

قالت العرب الذين يعبدون الملائكة ، وأهل الكتاب الذين يقولون : ثالث ثلاثة : بأيتما آية يا محمد تزعم أن الله إله واحد؟ !

فأنزل الله عز وجل في ذلك آية تشهد لها العقول ، وتؤمن بها القلوب ، وتعرفها

الألباب . فلا تستطيع لها ردا . ولا تطيق لها جحدا . ذكر فيها اتصال خلقه واتفاق صنعه . ليوقن الجاهلون من العرب . والضالون من أهل الكتاب . أن إله السماء والأرض وما بينهما من الهواء والخلق . واحد لا شريك له . خالق لا شيء معه . فقال:

" إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس "

فتفكر في تفسير هذه الآية من كلام الرب عز وجل . وما أوضح فيها من بيان الخلق . فإنه ما من مفكر ينظر فيما ذكر الله فيها مما بين السماء والأرض . إلا رأى من اتصال بعض ذلك ببعض . مثل ما رأى في تدبيره نفسه . وعرف من اتصال خلقه . فيما بين ذوائب شئون رأسه إلى أطراف أنامل قدمه . وفي ذلك أوضح آية وأبين دلالة . على أن الذي خلقه وصنعه إله واحد لا إله معه . ولا من شيء ابتدعه أولا على مثال صنعه .

قد ترون بعيونكم وتعلمون بعقولكم . أن الله عز وجل خلق للأنام الأرض . وجعلها موصولة بالخلق فليس يدْحُوها إلا لَهُم . ولا يُديمُها إلا معهم . وجعل ذلك الخلق متصلا بالنَّبت . لا يقوم إلا به . ولا يصلح إلا عليه . وجعل ذلك النبت الذي جعله متاعا لكم ومعاشا لأنعامكم . متصلا بالماء الذي ينزل من السماء بقدر معلوم . لمعاش مقسوم . فليس ينجم النبت إلا به . ولا يحيا إلا عنه . وجعل السحاب الذي يبسطه كيف يشاء . متصلا بالريح المسخرة في جو السماء . تثيره من حيث لا تعلمون . وتسوقه وأنتم تنظرون كما قال عز وجل : " والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور"

ووصل الرياح التي يصرفها في جو السماء بما يؤثر في خلق الهواء من الأزمنة . التي لا تثبت الهواجر إلا بثباتها . ولا يزول عنه برد إلا بزوالها . ولولا ذلك لظل راكدًا

بالحر الميت ، أو مائلاً بالبرد القاتل ، ووصل الأزمنة التي جعلها متصرفة متلونة بمسير الشمس والقمر ، الدائبين لكم ، المختلفين بالليل والنهار عليكم ، وجعل مسيرهما ، الذي لا تعرفون عدد السنين إلا به ، ولا مواقع الحساب إلا من قبله ، متصلا بدوران الفلك الذي فيه يسبحان ، وبه يأفلان ، ووصل مسير الفلك بالسماء للناظرين سواء ، فهذا خلق الله عز وجل ، ما فيه تباين ولا تزايل ولا تفاوت ،كما قال سبحانه وتعالى:

" ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت "

ولو كان لله شريك ، أو معه ظهير عليه ، يمسك منه ما يرسل ، ويرسل منه ما يرسل ، أو يؤخر شيئا من ذلك عن وقت زمانه ، أو يعجله قبل مجيئ إبّانه لتفاوت الخلق ، ولتبَاين الصنع ، ولفسدت السماوات والأرض ، ولذهب كل إله بما خلق ،

كما قال عز وجل: - وكذّب المبطلين - " بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون ، ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون " .

والعجب ... كيف يصف مخلوق ربه ، أو يجعل معه إلها غيره ، وهو يرى فيما ذكر الله من هذه الأشياء صنعة ظاهرة ، وحكمة بالغة ، وتأليفا متفقا ، وتدبيرا متصلا ، من السماء والأرض لا يقوم بعضه إلا ببعض ، متجليا بين يديه ، ماثلا نصب عينيه ، يناديه إلى صانعه ، ويدله على خالقه ، ويشهد له على وحدانيته ويهديه إلى ربوبيته "فتعالى الله عما يشركون ، أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون "؟! حقا ما كرر هؤلاء الجاهلون بربهم ، الضالون عن أنفسهم ، في خلق الله النظر ، ولا رجعوا - كما قال الله عز وجل - الفكر ، ولو أعملوا فكرهم وأجهدوا نظرهم ، فيما تسمع آذانهم وترى أبصارهم ، من حوادث حالات الخلق ، وعجائب طبقات الصنع ، لوجدوا في أقرب ما يرون بأعينهم ، من التأليف لتركيب خلقهم ، والأثر في التدبير بصنعهم ، ما يدلهم

على توحيد ربهم ، ويقف بهم على انفراده بخلقهم ، فإنهم يرون في أنفسهم بأعينهم ويجدون بقلوبهم ، أنها مخلوقة صنعة بعد صنعة ، ومحولة طبقة عن طبقة ، ومنقولة حالا إلى حال ، سلالة من طين ، ثم نطفة من ماء مهين ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظما ، كساه الله عز وجل لحما ، ونفخ فيه روحا ، فإذا هو خلق آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، الذي خلق في قرار مكين من ماء قليل ضعيف ذليل ، خلقا صوره بتخطيط ، وقدره بتركيب ، وألفه بأجزاء متفقة ، وأعضاء متصلة ، من قدم إلى ساق إلى فخذ إلى ما فوق ذلك من مفاصل ما يعلن أو عجائب ما يبطن ليعلم الجاهلون ويوقن الجاحدون : أن الذي صنع ذلك وخلقه ودبره وقدره وهيأ ظاهره وباطنه ، إله واحد لا شريك معه ، فلا يذهبن ذكر هذا صفحا عنكم ، ولا تسقط حكمته جهلا به عليكم ، وفكروا في آيات الرسل وبينات النذر ، فإن في ذلك فكرا للمبصرين ، وبصرا للمعتبرين ، وذكرى للعابدين ، والحمد لله رب العالمين .

وأمير المؤمنين واصف لكم ، ومقتص من ذلك - إن شاء الله - عليكم ما فيه شهادات واضحات ، وعلامات بينات ، ومبتدئ بذكر آيات نبينا -صلى الله عليه وسلم - فيما أنزل الله منها في الوحي إليه ، فإنه ما أحد يقرع بآيات النبوة قلبه ، ويحصن بينات الهدى عقله ، إلا قادته حتى يؤمن بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ، لا يجد إلى إنكار ما جاء به من الحق سبيلا ، فأردت أن تكونوا على علم ومعرفة ويقين وثقة من أمر محمد - صلى الله عليه وسلم - وحقه ، وما أنزل إليه من ربه عز وجل .

فأحضر كتاب أمير المؤمنين فهمك ، وألق إلى ما هو واصف - إن شاء الله - سمعك.

إن الله عز وجل اصطفى الإسلام لنفسه ، واختار له رسلا من خلقه ، وابتعث كل رسول بلسان قومه ، ليبين لهم ما يتبعون ويعلمهم ما يجهلون ، من توحيد الرب وشرائع الحق " لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما "

فلم تزل رسل الله قائمة بأمره ، متوالية على حقه ، في مواضي الدهور ، وخوالي القرون ، وطبقات الزمان ، يصدق آخرهم بنبوة أولهم ، ويصدق أولهم قول آخرهم ، ومفاتح دعوتهم واحدة لا تختلف ، ومجامع ملتهم ملتئمة لا تفترق ، حتى تناهت الولاية والوراثة ، التي بنى عيسى عليه السلام عليها وبشر بها ، إلى النبي الأمي ، الذي انتخبه الله لوحيه ، واختاره بعلمه ، فلم يزل ينقله بالآباء الأخاير ، والأمهات الطواهر ، أمة فأمة ، وقرنا فقرنا ، حتى استخرجه الله في خير أوان ، وأفضل زمان ، من أثبت محاتد أُرُومات البرية أصلا ، وأعلى ذوائب تبعات العرب فرعا ، وأطيب منابت أعياض قريش مغرسا ، وأرفع ذُرى مجد بني هاشم سَمْكا : محمد صلى الله عليه وسلم خيرها عند الله وخلقه نفسا ، على حين أوحشت الأرض من أهل الإسلام والإيمان ، وامتلأت الآفاق من عبدة الأصنام والأوثان ، واشتعلت البدع في الدين ، وأطبقت الظلم على الناس أجمعين وصار الحق رسما عافيا ، خلقا باليا ، ميتا وسط أموات ، ما إن يحسون للهدى صوتا يسمعونه ، ولا للدين أثرا يتبعونه ، فلم يزل - صلى الله عليه وسلم - قائما بأمر الله الذي أنزل إليه ، يدعوهم إلى توحيد الرب عز وجل ، ويحذرهم عقوبات الشرك ، ويجادلهم بنور البرهان ، وآيات القرآن ، وعلامات الإسلام ، صابرا على الأذى محتملا للمكروه ، وقد ألهمه الله عز وجل أنه مظهر دينه ، ومعز تمكينه ، وعاصمه ومستخلفه في الأرض ، فليس يثنيه ريب ، ولا يلويه هيب ، ولا يعنيه أذى ، حتى إذا قهرت البينات ألبابهم ، وبهرت الآيات أبصارهم ، وخصم نور الحق حجتهم ، فلم تمتنع القلوب من المعرفة بدون صدقه ، ولم تجد العقول سبيلا إلى دفع حقه ، وهم على ذلك مكذبون بأفواههم ، وجاحدون بأقوالهم ، كما قال الله عز وجل ، العليم بما يسرون ، الخابر بما يعلنون " فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون " بغيا وعداوة ، وحسدا ولجاجة ، افترض الله عليه قتالهم ، وأمره أن يجرد السيف لهم ، وهم في عصابة يسيرة ، وعدة قليلة مستضعفين مستذلين ، يخافون

أن يتخطفهم العرب وتداعى عليهم الأمم ، وتستحملهم الحروب ، فآواهم في كنفه وأيدهم بنصره ، وأنذرهم بمقدمة من الرعب ، ومشغلة من الحق وجنود من الملائكة ، حتى هزم كثيرا من المشركين بقلتهم ، وغلب قوة الجنود بضعفهم إنجازا لوعده ، وتصديقا لقوله : . وإن جندنا لهم الغالبون . فأحسن النظر وقلب الفكر في حالات النبي - صلى الله عليه وسلم - من الوحي قائما لله ، لتجد لمذاهب فكرك وتصاريف نظرك مضطربا واسعا ، ومعتمدا نافعا ، وشعوبا جمة ، كلها خير يدعوك إلى نفسه ، وبيان ينكشف لك عن محضه ، وأخبر أمير المؤمنين ما كنت قائلا لو لم تكن البعثة للنبي . صلى الله عليه وسلم . بلغتك ، ولم تكن الأنباء بأموره تقررت قبلك ، ثم قامت الحجة بالاجتماع عندك ، وقالت الجماعة المختلفة لك : إنه نجم بين ظهراني مثل هذه الضلالات المستأصلة ، والجماعات المستأسدة ، التي ذكر أمير المؤمنين من قبائل العرب ، وجماهير الأمم وصناديد الملوك ، ناجم قد نصب لها وغرى بها يجهل أحلامها ، ويكفر أسلافها ، ويفرق آلافها ، ويلعن آباءها ويضلل أديانها ، وينادي بشهاب الحق بينها ، ويجهر بكلمة الإخلاص إلى من تراخى عنها ، حتى حميت العرب ، وأنفت العجم ، وغضبت الملوك ، وهو على حال ندائه بالحق ودعائه إليه وحيدا فريدا ، لا يحفل بهم غضبا ، ولا يرهب عنتا ، يقول الله عز وجل : .

(يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس)

أكنت تقول فيما تجري الأقاويل به ، وتقع الآراء عليه ، إلا أنه أحد رجلين :

إما كاذب يجهل ما يفعل ويعمى عما يقول ، وقد دعا الحتف إلى نفسه ، وأذن الله لقومه في قتله ، فليست الأيام بمادة ، ولا الحال بثابتة له إلا ريثما تستلحمه أسبابهم ، وينهض به حلماؤهم غضبا لربهم ، وأنفة لدينهم ، وحمية لأصنامهم ،

وحسدا من عند أنفسهم .

وإما صادق بصير بموضع قدمه ومرمى نبله ، قد تكفل الله عز وجل بحفظه وصحبه بعزه ، وجعله في حرزه وعصمه من الخلق ، فليست الوحشة بواصلة مع صحبة الله إليه ، ولا الهيبة بداخلة مع عصمة الله عليه ، ولا سيوف الأعداء بمأذون لها فيه ، ثم إن آيتكم يا أهل الكتاب لو قيل لكم إن الرجل الذي يدعي العصمة وينتحل المنعة ، قد نجمت الأمور به على ما قال ، وسلمت الحال له فيما ادعى ، حتى نصب لعمارات العرب وجماعات الأمم يقاتل بمن طاوعه من خالفه ، وبمن تابعه من عانده ، جادا مشمرا ، محتسبا واثقا بموعود الله نصره ، لا تأخذه لومة لائم في ربه ، ولا يوجد لديه غميزة في دينه ، ولا يلفته خذلان خاذل عن حقه ، حتى أعز الله دينه وأظهر تمكينه ، وانقادت الأهواء له ، واجتمعت الفرق عليه ، ألم يكن ذلك يزيد حقه يقينا عندكم ؟ ودعوته ثبوتا فيكم ؟ حتى تقول الجماعة من حلمائكم ، وأهل الحنكة من ذوي آرائكم : ما كان الرجل إذا كان وحيدا فريدا قليلا ضعيفا ذليلا معروفا بالعقل ، منسوبا إلى الفضل ، ليجترئ أن يقول : إن الله عز وجل أوحى إليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يعصمه من العرب جميعا ، ويمنعه من الأمم طرا حتى يبلغ رسالات ربه ، ويظهره على الدين كله ، ويدخل الناس أفواجا في دينه ، إلا وهو على ثقة من أمره ، ويقين من حاله .

فسبحان الله يا أهل الكتاب ، ما أبين حق النبي - صلى الله عليه وسلم - لمن طلبه ، وأسهله لمن قصد له واستعملوا في طلبه ألبابكم ، وارفعوا أبصاركم تنظروا بعون الله إليه ، وتقفوا إن شاء الله عليه ، فإن علامات نبوته ، وآيات رسالته ظاهرة لا تخفى على من طلبها ، جمة لا يحصى عددها .

منها: **خواص** تعرفها العرب ، **وعوام** لا تدفعها الأمم

فأما الخواص المعروفة لدينا ، المعلومة عندنا ، التي أخذتها الأبناء عن الآباء ، وقبلها الأتباع عن الأسلاف ، فأمور قد كثرت البينات فيها ، وتداولت الشهادات عليها ، وثبتت الحجج بها ، وتراخت الأيام ببعضها ، حتى رأيناه عيانا ، وقبلناه إيقانا ، فهي أظهر فينا من الشمس ، وأبين لدينا من النهار ، ولكن غيبت الأزمان عنكم أمرها ، ولم ينقل الآباء إليكم علمها ، **وما لا يدرك إلا بالسمع موضوع الحجة عن العقل .**

فليس أمير المؤمنين بمحاج لكم ، ولا قاصد إليكم من قبلها .

وأما الآيات العوام ، والدلالات الظاهرة في آفاق الأرضين ، القاطعة لحجج المبطلين ، التي لا تنكر عقول الأمم وجوب حقها ، ولا تدفع الباب الأعداء صحة أمرها ، فسيولجها أمير المؤمنين مسالك أسماعكم ، ويعيد بها حجة الله في أعناقكم من وجوه جمة وأبواب كثيرة إن شاء الله ، منها :

أنه لم تزل الشياطين ـ فيما خلا من فترات الرسل وندرات الرسل ـ تصعد إلى سماء الدنيا وتنصب للملأ الأعلى فتسترق السمع ، وتحتفظ العلم ، وتنزل به إلى كل أفاك أثيم ، يبنون أكاذيبهم على واضح صدقه ، وينفقون أباطيلهم بحسب حقه ، خلطا للباطل فيه ، وتنويها للعباد عليه ، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزل آيات القرآن إليه ، حرست السماء بالنجوم ، ورميت الشياطين بالشهب ، وانقطعت الأباطيل ، واضمحلت الأكاذيب ، وخلص الوحي ، فبطلت الكهان ، وضلت السحار ، وكذبت الأحلام ، وتحيرت الشياطين ، فكانت آية بينة ، وعلامة واضحة ، وحجة بالغة ، تبهر قرائح العقول ، وتخرق حجب الغيوم ، فلا يقوم مع ضيائها ظلمة ، ولا يثبت عند محكمها شبهة ، ولا يقيم معها في محمد – صلى الله عليه وسلم – شك ، لا من أصحابه خاصة ، ولا ممن جاء بعده عامة ، وإنما جعلها الله

عز وجل آية باقية في الغابرين ،وحراسة ثابتة من الشياطين ، لأن الله جعل نبينا - صلى الله عليه وسلم - آخر النبيين ، فليس باعثا بعده نبيا يكذب أقاويل الكهنة ، ويقطع أخابير الجنة .

وسنقول ، فيما يذهب إليه الظن ويقع عليه الرأي أنت ومن عقل من أمتك وأهل ملتك : هذه آية حاسمة وحجة قاطعة بينة قائمة ، مستعلية لأمرها مستغنية بنفسها ، لا تحتاج إلى ما قبلها ، ولا يتكل على ما بعدها إن أقرت العقول بما تقول أو قامت البينة على ما تدعى ! بلى ! ثم تقول : وأنى لك بالبينة ؟ ولسنا نقر بكتابك ولا نؤمن برسولك ، ولا نقبل قولك فيما قد سبقنا وإياك زمانه ، وحجبت الغيوب عنا وعنك علمه ؟ فأرجع إليكم إن قلتم ذلك ، فإن وجدان القضاة قبل طلب البينات .

وليس يجعل أمير المؤمنين فيما ينازعك ويحاجك فيه حاكما غير عقلك ، ولا قاضيا سوى نفسك ، ولكنه يذكرك الله الذي إليه معادك وعليه حسابك ، لما جعلت التفهم لمسألته من بالك وركبت حدودها في جوابك ، عادلا بالقسط قاضيا بالحق قائلا بالصدق ولو على نفسك ناظرا بالأثرة لدينك ،فلقد وفق الله آية وأهدى إليك بينة ، لا تستطيع دفعها لحجبها عن عقلك ، ولا حجابا لنورها دون بصرك ، فلا تدفع الآية بقولك والبينة بلسانك ، جحدا بقطع وصول الحجج إليك ، ويد تغلق أبواب الفهم عنك ، فإن اللسان لك مداول حيث شئت ومنقاد تصرفه فيما هويت ، ولكن انصب نفسك للفهم وأنت شهيد ، وأورد الحق وقبوله فيما تريد ، فإذا تصورت البينات مجسدة في قلبك ، وتبينت الحجج ممثلة لنظرك ، قد أضاء صوابها لك وقرع حقها قلبك ، فاجعل القول بها شعارا للسان به متصلا ، وافهم المسألة فهمك الله الحق وجنبك الجحد .

ما تقول أنت ومن قبلك في رجل كان يتيما ضعيفا أجيرا ساهيا لاهيا عائلا

خاملا ، لم يتل كتابا ، ولم يتعلم خطا ،ولم يك في محلة علم ، ولا إرث ملك ، ولا معدن أدب ،ولا بيت نبوة ، فتراقت الأيام به ، واتصلت الحال بأمره ، حتى خرج إلى العرب عامة والقبائل كافة ، وحيدا طريدا شريدا ، مخذولا مجهولا ،مجفوا مرميا بالعقوق لآلهتهم ، مقذوفا بالكذب على أصنامهم ، منسوبا إلى الهجر لأديانهم ، وهم مجمعون على دعوة العصبية وحمية الجاهلية ، متعادون متباغون ، مختلفة أهواؤهم ، متفرقة أملاءهم ، يتسافكون الدماء ويتناحون النساء ، ويستحلون الحرم ، لا تمنعهم ألفة ، ولا تعصمهم دعوة ، ولا يحجزهم بر ، فألف قلوبها وجمع شتيتها ، حتى تناصرت القلوب ، وتواصلت النفوس ، وترافدت الأيدي ، ثم اجتمعت الكلمة ، واتفقت الأفئدة ، حتى صار غاية للقى رحالهم ، ونهاية لمنتجع أسفارهم ، وصاروا له حزبا متفقين ، وجندا مطيعين ، بلا دنيا بسطها لهم ، ولا أموالهم أفاضها بينهم ، ولا سلطان له عليهم ، ولا ملك سلف لآبائه فيهم ، ولا نباهة كانت له بين ظهرانيهم ؟؟

أتقول إنه ما قال ذلك كله إلا بوحي عظيم ، وتنزيل كريم ، وحكمة بالغة ، فإن قلت ذلك فقد أقررت أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول ، وتركت ما كنت تقول إنه لم يدركه ولم يبلغه إلا بعقل سديد ،ونظر بعيد ،ورفق لطيف ، ورأي وثيق استنبى به عقول الرجال ،واستمال إليه أفئدة العوام ، فإن قلتم ذلك فأنا سائلكم بإلهكم الذي تعبدون ، ودينكم الذي تنتحلون ،لما صدقتم أنفسكم وتجنبتم الهوى عنكم ، أتؤمن قلوبكم وتقر عقولكم ،ويحتمل نظركم ، أن محمدا صلى الله عليه وسلم الذي وصفتموه بكمال العقل ، وبيان الفضل ، ورفق التدبير ، كان يقول لرجالات العرب ،وجماعات الأمم ، ودهاة قريش : إن من آيات نبوتي ، ودلالا ت رسالتي ، وعلامات زماني ، أن الشياطين ترمى بنجوم السماء ، ولم تك ترمى بها فيما خلا ، ثم يجعل ذلك كتابا يقرأ ، وقرآنا يتلى ، وهو كاذب فيما تلا ، ومبطل ، فيما ادعى ، إبطالا تدركه عيون الناظرين ، وكذبا يظهر لجميع العالمين ، سبحان الله ، أرأيتم أن لو كان فيما قال من

الكاذبين ، وعلى ما ادعى من الآثمين ، ثم حاول إبعاد القلوب ، وإيغال الصدور ، وإنفار النفوس ، وتفريق الجموع ، أكان يزيد على ذلك .

فيا أهل الكتاب ، لا يحملنكم الإلف لدينكم على اللعب بتوحيدكم ، فلعمر الله لئن تداركتم أنفسكم وناصحتم نظركم لتعلمن أن محمدا صلى الله عليه وسلم لو حاول الكذب ، أو رام الإفك لما كان يترك جميع الأرض ، وما يغيب عن بعض الخلق ويظهر لبعض ، ويقصد للسماء المتصلة بالبصر ، البارزة للنظر التي لا تخفي على بشر، ولا تغيب عن أحد ، فيدعى فيها كذبا ظاهرا ، وإفكا بارزا مكشوفا ، لا يبقى صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى إلا عرف أنه إفك و زور ، وكذب وغرور ، ولاسيما إذا كان يلقى ذلك إلى أقوام أكثرهم أعراب ، ليس بينهم وبين السماء حجاب ، إنما يراعون الكواكب ، ويتفقدون الغيوم ، فأبعد عهد آخرهم بها تفقده لها ونظره إليها ساعة أو ساعتين ، أو ليلة أو ليلتين .

لعمر الله لو عثرت العرب من أمر النبي صلى الله عليه وسلم على كذب ، لكان أول من يواثبه به ويجادله فيه أعداؤه من قريش عامة ، وحساده من جبرته خاصة ، ونظراؤه من أهل بيته دنية ، الذين كانوا يستعيرونه لكل طريق ، ويقعدون له على كل سبيل ، ويتساءلون من أمره عن كل ذي حادث فيتعلقون بالحروف المشكلة ، والآيات المشتبهة ، جدلا وخصومة بها ، وطعنا وإلحادا ومنازعة فيها ، حتى لقد وصفهم الله بفعلهم وأخبر عن ذلك من أمرهم ، فقال عز وجل " بل هم قوم خصمون " وما كان الله عز وجل ليقول ذلك ولا لأحد أن يقوله على الله في أمرهم ، إلا عن خصومة شديدة ، ومنازعة بليغة ، ومجادلة معروفة ، فأحسن النظر لنفسك ، ولا تهلكن شفقة على ملكك .

فايم الله لئن قلت إن النجوم شيء كانت العرب تراه بعيونها وتعرفه بقلوبها ،

فما كان محمد صلى الله عليه وسلم وهو عارف بها غير جاهل لها ، ليقول فيها إلا حقا ، وينتحل فيها إلا صدقا ، لقد ثبتت فروع كلامك فيها على رأسه ، و وصلت آخر قولك له بأوله ثبوتا على ما ذكرت من عقده ولزوما لما فرطت من نظره ، ولكنك لا تجد مع الإقرار بذلك بدا من التصديق برسالته ، ولا مذهبا عن الإيمان بنبوته .

ولئن زعمت أنه ادعى أمر النجوم كذبا وانتحلها باطلا ، عارفا كان بها أم جاهلا ، لقد نسبته من الخطأ الذي لا يعمي عن بصره إلى ما يخطئ فيه بشر ، فأكذبت نفسك ، وتركت قولك : إنه لم يكن التأليف لقلوب العرب والجمع لشتيت القبائل ، إلا برأي سديد ، وعقل أصيل ، ورفق بالغ ، إلى أحد أمرين لا تجد لكلامك وجها تذهب إليه غيرهما ، ولا محملا تضعه عليه سواهما ، إما أن تقول : إنه ألف قلوب العرب ، وفرق جموع الأمم بتنزيل الوحي ، فتؤمن أنه نبي ، وإما أن تقول : فعل ذلك بجهل ، وهذا قول لا يقبل ، كيف يصفه أحد من الجاحدين به ، المكذبين له بغباوة ، أو يرمونه بجهالة ، وهم يجوزون به حدود الأنبياء ، ويرفعونه فوق أمور العلماء ، ويتخطون به مراتب الحكماء ومنازل الناس ، تكثيرا لعلمه ، وتسديدا لعقله ، وتثبيتا لفضله ، فيما لا يقدر الخلق عليه ولا تهتدي الألسن إليه ، حتى لقد نحلوه فعل الرب الذي لا يقدر عليه الخلق في وجوه كثيرة وأنحاء جمة ، من ذلك أنه إذا قالت البقايا من أمتنا : كان محمد صلى الله عليه وسلم يخبرنا بالغيوب قبل ظهورها ويصف الأمور قبل حلولها ويتجاوز ما يكون في زمانه من ذلك إلى ما يكون في زماننا غيبا ، أطلعه الله عز وجل عليه ، أضافوا ذلك علما إليه ، فقالوا : كان أعلم الناس بمواقع النجوم ، وأبصرهم بمنازل البروج ، وأنظرهم في دقائق الحساب ، كيف ولم يكن الحجاز دار نجوم ولا محل حساب ولا معدن أدب ، بل كيف والمنجم يقيس ويخطئ ،ويشك فيما يدعي ،وهو أخو صواب لا شك فيه ،وفارس صدق لا قياس معه .

ومن ذلك أنه إذا قالت العلماء من المسلمين :كان نبينا صلى الله عليه وسلم عليما بباطن أخبار النبيين ، وخفي قصص القرون الأولين ، قالوا كان أحيا الناس قلبا ، وأوسعهم سربا ، وأسرعهم أخذا يتتبع ذلك ويحبه ، وقد رواه وعلمه ، سبحان الله أولا يعلمون أن المتعلم معروف المعلم ، متفاوت الحالات ، متنقل الطبقات ، وأنه ما أحد يؤدب صغيرا أو يطلب العلم كبيرا ، إلا وله درجات في علمه ، وتارات في أخذه ، ومنازل في تعلمه ، تارة تلميذ وتارة مقارب ، وأخرى حاذق ، وبكل ذلك موصوف من أهله ،معروف عند قومه ظاهر لجيرته ، مستفيض في عشيرته ، لا يجهل أمره ، ولا يخفى ذكره ، ولا ينسى عند مواضع الحاجة إليه ، وتارات به عليه ، ولو كان ذلك معروفا فيهم ، أو موجودا لديهم ، أو ظاهرا عندهم لما أمره الله عز وجل ، أن يحتج عليهم ويقول في ذلك لهم :لقد لبثت فيكم عمرا من قبله ، لا أتلوا قرآنا ولا أدعي وحيا، أفلا تعقلون !!

وايم الله ! لو كانوا يعقلون أو ينظرون ، لعلموا أن معلمه على غير الملة التي يعرفون ، لأنه لهم من المخالفين ، وعليهم من الطانعين ، يذكر فضائح قولهم ومعايب أمرهم ، ومخازي أسلافهم ، وعوثر أديانهم ، وأنه لو كان معلمه نصرانيا لدعاه إلى النصرانية ، أو يهوديا لدعاه إلى اليهودية ، أو مجوسيا لدعاه إلى المجوسية ، ولو لم يكن له معلم لما وقع على الحقيقة هداية من تلقاء نفسه ومعرفة بقوة عقله ، ولو كان معلمه الشيطان لما قايست البصراء بالكلام والعلماء بالمنطق ، بين ما بأيدينا من كلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما جاء به من كلام الوحي ، فإذا بينهما بون بعيد وتفاوت شديد ، ليس بشبه له ولا مدان ولا قريب ، وكذلك ينبغي لكلام الرب عز وجل أن يعلو كلام الخلق ، وألا يشبه قول العباد في تأليفه وأحاديثه ومعانيه وجميع ما فيه ، لأن الله عز وجل لا يشبهه شيء .

من ذلك أنه إذا قال المسلمون : كان محمد صلى الله عليه وسلم يرى ماضي أسلافنا وصلح آبائنا من العجائب العظام ، والآيات الكبار ، ما هو جديد عندنا ، بين قبلنا فلم يعف أثره ولم يدرس خبره ، ولم يتقادم عهده من شجرة ناداها فأقبلت ثم أمرها فرجعت ، ومن نحو بعير تظلم ، وذئب تكلم ، وأشباه لذلك كثيرة ، ونظائر له عجيبة ، قالوا كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كاهنا حاذقا ، وساحرا ماهرا ، يشبه بالخيال ، ويأخذ بالأبصار ، كيف والجموع الكثيرة تصدر عن الأطعمة اليسيرة والمياه القليلة ، شباعا رواء ، أيكون ذلك والسحر سواء والأخذ بالعيون لا يجري في البطون ، ولو كانوا ينظرون لدينهم وينصفون من أنفسهم ، لعلموا أن أمر الساحر يدور على إفك وغرور وأن لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ آثارا قائمة ،ومنافع دائمة ، ثم لو كانت الكهانة والسحر يبلغان مثل هذا من الأمر ، لبطلت آيات الكتب وعلامات الرسل ، ولعلت الشبهة ، وسقطت الحجة ، وكذبت النبوة ، ولبطل ما كان يفعله عيسى عليه السلام من إبرائه الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى ، فلا يكونن التقليد للرجال مبلغ علمك ، ولا القبول لدعواهم بلا بينة .

ومن ذلك أنه إذا قالت البصراء من أمتنا والعلماء بملتنا كان النبي صلى الله عليه وسلم ـ أميا لا يحسن الكتاب ، وحافظا لا ينسى القرآن ، وقلما يجتمع العقل السديد والحفظ السريع والنسيان البطيء ، قالوا : كان أحظ الناس يدا ، وأذكاهم حفظا ، كان يكتب بالنهار ويدرس بالليل .

ولعمر الله أن لو كانت الحال كما يقولون والأمر كما يصفون لما خفيت الصحف له ، ولا اكتتمت الدراسة عليه ، ولما كان يطيق سترها عن أهله ، ولا حجابها دون قومه ، وكيف تؤمن القلوب وتقر العقول أن رجلا كبيرا حمل علما كثيرا وحكما جماء ، من آيات متشابهة ، وسور متوالية ، وهو صاحب أسفار مترامية ، وأخو حرب

دائمة لا يبطئ لفظه ، ولا يسقط حفظه ، لولا أن الله عز وجل كفاه أن يحرك به لسانه ، وضمن له جمعه وقرآنه ،فقال عز وجل " سنقرئك فلا تنسى " فلم يكن يسقط واوا و لا ألفا ، ولا ينسى كلمة و لا حرفا ؟ ما أبين هذا وأعجبه ، وأعجب منه المنكر له!!

وأما قولهم في الخط وإكثارهم في الكتاب ، فإن الله عز وجل جعله أميا ليثبت حجته ، ويصدق مقالته ، ولئلا يشك المبطلون في أمره ، ويقولون تعلمه من غيره ، فإنه قد قال ذلك بطائن من منافقة العرب وطوائف من كفرة العجم ، فنطقت به الأعداء من جيرته ، والحسدة من عشيرته ، الذين بلغوا ما بلغوا من مجادلة حقه ، ومخاصمة ربه ، كفاة لمن قرب ، ووكلاء لمن بعد ، فيما لم تكن العرب واقعة عليه ، ولا الأمم مهتدية إليه ، لأنهم قد أحاطوا من علم خبره ، وخفي أثره ، بما كان عن غيرهم محتجبا ، ومن سواهم مكتتما ، وقالوا : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يتعلم من بشر أو يختلف إلى أحد ، لما خفى عنا ولسقط علينا .

وحقا لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يختلف إلى أحد صغيرا ، أو يتعلم من بشر كبيرا ، لعرف ذلك أترابه المختلفون معه ورفقاؤه والمقتدرون ، ولما جهل ذلك من حوله من جيرته نصرة ولا من معه من أهل بيته دنية ، الذين عليهم يورد ومن قبلهم يصدر ، ولكان شائعا عند حشم معلمه وجيرة موضعه الذين كان يختلف إليهم ، ويتأدب بين ظهرانيهم ، ولو كانوا بذلك عالمين ، أو فيه من أمره شاكين ، ثم بلغهم وتقرر قبلهم أنه يقول : إن الله عز وجل أوحى إليه ، فيما أنزل من الكتاب عليه " وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون " لخاصمه منهم من كفر ، ولكفر به منهم من آمن ، ثم يدعى ذلك قرآنا ، وينتحله وحيا ، أما كان يرهب أن ينتشر في الأقربين ، ويخرج إلى الأبعدين ، فتبطل حجته ، وتنتقض دعوته ، وتسقط

نبوته ، ويبفر اصحابه الذين لم يصبروا معه في المجاهدة أنفسهم ، ويبذلوا عند الشدائد مهجهم ، وينفقوا فيه على الحاجة أموالهم ، مناصبين لأهل الشرق والغرب والعجم وكل الأمم ، وهم قليلون مستضعفون غائلون جائعون ، لا طلبا لدنيا ولا طمعا في منال ، إلا لما تعقبوا من قوله ، وعرفوا من صدقه ، ولولا أنه أخبرهم ووعدهم أن يغلب كسرى وقيصر لهم ، فصدقوا بقوله ، وآمنوا بوعده ، حتى قويت البصائر ، وصرمت العزائم ، وقويت النيات ، فنشطت النفوس ، وشجعت القلوب ، وحمت الأبدان ، لما وقع لهم طمع فيه ، ولا ذهب لهم وهل إليه ، فكن من ذلك على يقين لا يخلجه شك ، ومعرفة لا يخلطها ريب ، إن شاء الله .

ومن ذلك أنه إذا قال المسلمون : ما من فعال محمود ، و لا مقال معروف ، ولا خلق كريم ، ولا أدب فاضل إلا وقد أدب الله عز وجل به محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأنزله في الكتاب إليه ، فكان يأمر بالمكارم ، ويحض على المحامد ، ويعمل بالمحاسن التي ليس فيها مدخل لشبهة طاعن ، ولا معلق لحجة قائل ، ولا مغمز لبصيرة عائب ، ولا موضع لخصومة بشر ، في وعد أو عهد أو حل أو عقد ، أو مقال أو فعال ، أو غير ذلك من الأمور .

قالوا : أمور حمل عليها نفسه ودعاه إليها عقله ، وصبر عليها ، لما أمل ورجا فيها .

سبحان الله ؟ وما أمل بها وارتجى منها ؟ إن قالوا : الدنيا فلقد أكذبهم إدباره عنها حيث أمكنته القدرة منها ، وأعثرته الحال عليها ، وإن قالوا حب الأثرة ، فقد جعل نفسه للمسلمين أسوة في سهامهم وقصاصهم ، وحدودهم وحقوقهم ، وغير ذلك من أمورهم ، وإن قالوا الملك ، فلقد كان أشد الناس لربه تواضعا ، وأعظمهم في جنبه تصاغرا ، ما إن أكل متكئا قط إلا مرة ، ثم قعد كهيئة الفزع لها النادم عليها ، فقال " اللهم إني عبدك ورسولك " وإن قالوا : النعيم ، فمن كان أيبس منه معاشا ، وأخشن

منه رياشا ، وأغلظ منه مأكلا ، وكيف يذوق العيش ، أو يجد لذيذ النعيم ، من حرم السكر والخمر ، ونهى عن الديباج والقز ، وكان أكثر دهره صائما ، وأطول ليله قائما ، فإن قالوا : طلب الصوت ورغب في الدين ، فذلك ما لم يطلبه أحد في حب الصوت والتماس الحمد لما صبر مغاضب قومه ، وملاوم أهله ، وشتائم العرب ، وتوعد العجم ، واستهزاء قريش ، يرمونه بالعقوق ويقذفونه بالجنون ، ويبهتونه بالسحر ، وليس يدري ما يهجم به الأمر.

أم يقولون : طلب تأثيل الملك لقومه ، وأراد توطئة الولاية لأقاربه ، فكيف يطلب لقومه ما قد زهد فيه لنفسه ، أم كيف يطلب لهم عز الملك وقد أوطأهم الذل ثم القتل ؟ لعمر الله أن لو أراد الملك لأقاربه ، وأراد طلب السلطان لذوي رحمه لوكد لهم عقدا لا يحل ، ولأبرم لهم أمرا لا ينقض ، ولأثل لهم في عنفوان أمره ملكا لا يخرج من أيديهم ، ولا يبرح أبدا فيهم امتثالا لصنيعكم واحتذاء على مثالكم ، مع أقاويل جمة ونظائر كثيرة ، لا يستقيم لهم معها أن يقولوا إن محمدا صلى الله عليه وسلم غلب العرب وقهر العجم ، أو قال في أمر السلطان والنجوم بكذب .

فإن قلتم إن محمدا صلى الله عليه وسلم كان في قوة عقله وبيان فضله ، على ما قلنا وقلتم وصدقنا به نحن وأنتم ، ولكن هفت العلماء وزلت الحكماء وأخطأت القلوب ، فقد يعلم أمير المؤمنين ـ وأنتم بذلك من العالمين ـ أن خطأ قلوب العلماء كخطأ دائرة الرحا ، ليست العلماء بمخطئة إلا المرة والثنتين كما لا تخطئ الرحى إلا الحبة والحبتين ، ومثل الذي نسبتم إلى النبي صلى الله عليه وسلم من الخطأ عندكم والجهل في أنفسكم كثير لا يحصيه أحد ولا يبلغه عدد ، وأمير المؤمنين واصف بعضه لكم ، ومورد ما حضر كتابه إن شاء الله لكم وايم الله على ذلك لو قالت العلماء من المسلمين هبوا محمدا صلى الله عليه وسلم كان في أمر النجوم من المخطئين ، فكيف

أخطأت العرب وهفت الأمم في ترك مجادلته ورفض منازعته ، وكيف لم تقل العلماء من إفنائه والحكماء من حكمائهم ، توبيخا منهم له وتعييرا لمن آمن معه ، هذا أمر من أوضح الأكاذيب ، وأبطل الأباطيل ، فلا يثبت مع قولهم إيمان ، ولا يقيم على شرحهم إنسان ، فإن قلت : فلعل ذلك قد كان ولكنه درج على طول الأزمان ، فكيف إذا صدقت العرب بنبوته ، ولم تكفر القبائل برسالته ، وهم يسمعون كذبا لا ينفع معه صدق كان قبله ، وباطلا لا يعصم معه حق حدث بعده ؟ وإن قلتم : أدخلهم بالقهر وضبطهم بالقتل وأكرههم بالسيف ، فما بال القليل من المسلمين الذين قهرهم الكثير من المشركين ، ما بالهم آمنوا وصدقوا ، وصبروا وصابروا ، وجدوا وجاهدوا ؟ كيف لم تنكسر عزائمهم ، وتهن بصائرهم ، ويرجعوا إلى دينهم ، ويهربوا عن توحيدهم ؟ كلا ؟ لو كان الأمر على ما تقول لارفض القوم عن الرسول ، ولكان صلى الله عليه وسلم أول مقتول أو مخذول .

فأحسن النظر فيما تذهب الأهواء برأيك إليه من آيات النبي صلى الله عليه وسلم، وإن جمحت الدعوى بكم ، فقائل قد مالت به الأهواء في الباطل ، فقال : إنه إلا يكن الأنبياء ذكرت النجوم في صحفها بينت الحكماء منها ذكرا في كتبها ، فجعلت المنقض من الكواكب بين الأعوام ، دليلا على أمر يحدث تلك الأيام ، ولا ما هذا الاختلاق يلط به الجاهل الفساق ، ما إن وضعت الحكماء ذلك في الكتب إلا ليالي ملئت السماء من الشهب .

وبالله لو ادعيتم غير ذلك فكان حقا ، وكانت القالة منكم صدقا ، لما كانت الدعوى بناقضة لآية النجوم حجة ولا مدخلة على أحد فيها شبهة ، لأن رميا يقع فرط السنين من الكواكب لا يبطل رجما قد ملأ السماء من كل جانب ، ثم لو لم تكن النجوم آية دامغة ، وحجة بالغة ، ودلالة قاهرة ، وعلامة باهرة ، وأمارة ظاهرة ، وشهادة قاطعة ،

وبينة عادلة ، وداعية قائمة ، تبطل أطانين المشركين ، وتردع أقاويل المنافقين ، لما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليعظم أمرها ، ولا ليكرر في آي القرآن ذكرها ، رهبة لمناهضة أحياء العرب ، ومعرفة بمجادلة إخوان الكتب ، الذين لو وجدوا فيما كتب به إليك أمير المؤمنين من أمر النجوم ، واحتج به عليك من ذكر الرجوم ، موقعا لظن ، أو معلما بطعن ، أو مغمزا لقول ، لناصبوه إذا بالمجادلة ، وكاشفوه بالمنازعة وجاهروه بالقول الذي لا يستطيع له ردا و لا يطيق له جحدا .

ولكنها آية ملأت الأقطار كثرة ، وحسرت الأبصار قوة ، قد وجلت العقول ، وولهت القلوب ، وملأت النفوس جزعا و وجعا وفزعا شغلهم عن الأولاد ، وأذهلهم عن البلاد ، حتى بلغ أمير المؤمنين وتقرر عند فقهاء المسلمين ، أن الله عز وجل ، لما ملأ السماء حرسا ، وأحدث لها رصدا ، وخلق فيها شهبا ، ذكرت العقلاء من العرب ، وقعات الله عز وجل في الكتب ، بقوم نوح وعاد وثمود ، وأشباههم من مؤافى تلك الجنود ، الذين كانوا أشد بطشا ، وأكثر جمعا ، فانفرجت أيديهم عن كرائم أموالهم ، وأرسلت أنفسهم متائن عقدهم ، وإن أهل الطائف لما فعلوا ذلك بأموالهم وأجمعوا فيه الخروج إلى فقرائهم ، قام فيهم رجل منهم ذو سن وعقل فقال : " يا معشر العرب ؟ لا تهلكوا أنفسكم قبل أن تهلكوا ، ولا تخرجوا من أموالكم قبل أن تخرجوا ، تفقدوا مواقع نجوم السماء ، وكواكب بدور الدجى ، فإن كانت النجوم التي حدث الرمي بها ، والنجوم التي أخليتم الأموال لها ، هي لبروج الشمس والقمر ومسال الحيوان والشجر ، فهي جوائح الاستئصال ، المتلفة الأنفس والأموال ، وإن كانت النجوم التي حدث القذف بها ، إنما هي نجوم خلقت اليوم ، فليست المعرفة بواقعة على مبتداها ولا الأبصار بلاحقة منتهاها ، فأمسكوا العقد عليكم والأموال ، فإنه أمر يحدث في إحدى هذه الليالي.

فإن قلت :وكيف وقعت الأمور في هذا الرجل كالعيان ، وصارت المقالة كوعي الآذان ؟ أنبأك أمير المؤمنين أن أوعية الفقه من المسلمين ، الذين حملوا إلينا سنن الدين ، هم أدوا ذلك إلينا ، وأبقوه فخرا ......[5] علينا ، فما إن ينفث منهم مفتخر يقول: أبونا الذي حبس على العرب الأموال والعقد ، فما إن يدفع القول في ذلك منا أحد .

هيهات ، ما كانت العرب لتقر عند الفخار ، إلا بطول هو أبين فيها من ضوء النهار ، فافهم ما كتب به أمير المؤمنين في هذا إليك ، ولا يكن التعلل فيها بالشبهات أو ثق ما لديك فإنه قل حجة إلا وإلى جنبها شبهة تخيل للعقول ، وتعرض للقلوب ، وتجلجل في الصدور ، فلا يثبت مع تخيلها ، ولا يقيم لتعرضها بشر إلا من وزن الحق والباطل بميزان عادل ، لا يميل إلى تفريط ، ولا ينحط في تقصير ،وقد جعل الله عز وجل العقول موازين للأمور ، فزنوا ما سمعتم من حجج كلام الرب عز وجل بما تنفون به الشبهة عن الحق ، ولا تميلوا اللسان فتخسروا الميزان ، وسيعلل أمير المؤمنين إن شاء الله بما جاء عن ذكر ما كتب به إليكم من أمر النجوم والرجوم والشهب في القرآن والرواية والكتب ، فألطفوا النظر في صحة معانيه ونحوا الهدى عن شبهة ما وقعت فيه : قال عز وجل :" ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين " ، وقال : " ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم " ، وقال : " إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد " ، وإن شطب عن الحق شاطب ، أو ذهب إلى الباطل ذاهب ، لا يعرف مذاهب كلام العرب ، ولا وجود معاني الكتب ، ولا تفسير آي القرآن ، فقال : إنما جعلت الكواكب ، والمصابيح حفظا من الله عز وجل للسماء ، ورجوما للشياطين من

---

[5] بياض بالأصل بمقدار كلمة

قبل أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالدين .

فإن في آيات القرآن ما فيه بيان مما يبطل دعواه التي لا بينة عليها ، ويكذب مقالته التي لا شهود لها ، فقالت الجن فجعل الله تبارك وتعالى قولها وحيا . وبه منها صدقا : " وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا " .

ألا ترون أنها كانت الجن لمست السماء فلم تجدها ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وقعدت الشياطين منها مقاعد للسمع فلم تجد شهبا و لا رصدا ، أولا يسمعون إلى ما يحقق ذلك ويسدده ويصدقه ويشهد له من قول الله تعالى : " هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون " مع قول الجن أيام حرست السماء ورميت الشياطين : " وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ، فإذا أعملتم في ذلك فكركم ، وقلبتم فيه نظركم ، فكنتم على برهان يقين ونور مستبين من استطاعة الجن للاستماع وقدرة الشياطين على الاستراق وإمكان السماء للقعود في تلك الحال الأولى ففكروا في الحال الأخرى حيث حرست الآيات أن تعارض باطلا بحق ومنعت الشياطين أن تنزل بصدق ، وامتنعت السماء أن يصعد إليها شيطان ، فقال الله عز وجل : " وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزلون " ، قالت الجن : " وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا " ،إن في قولهم الآن لأعظم نور وبيان ، وأبين من ذلك لكم وأصح لمن عقل إن شاء الله منكم إخبار الله عز وجل حين جعلت الكواكب حفظا من كل شيطا مارد ، أنهم " لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب " مع إخباره في الحال الأولى أنهم يسمعون ويقعدون وينزلون ويستطيعون ويتلون على ملك سليمان ، فكن لهذا من الحافظين ، وفيه من المفكرين .

ومن آيات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما نفرت القبائل من أعلام الشرك بجموعها ، وتداعت القادة من صناديد الكفر بأتباعها حذرا على عير لها أقبلت من الشام بصنوف رغائب أموال عظام ، فكانت العير والنفير طائفتين ، طائفة ذات عدة كثيرة وشوكة شديدة ، وطائفة ذات أموال رغيبة ورجال قليلة وفرصة ممكنة ، أخرج الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم ووعده ومن معه من المسلمين إحداهما فكره المؤمنون جموع المشركين وأراد الله عز وجل أن يقطع دابر الكافرين ، ويشيد بذلك أركان الدين ، فلما تراءت الفئتان ، وتناوشت الفرسان ، وتلاقى الناس ، وقبل ذلك ما قال الله عز وجل " سيهزم الجمع ويولون الدبر" قبض النبي صلى الله عليه وسلم قبضة من تراب حثاها في وجوههم ، فلم يتناه دون مناخرهم وعيونهم فانصرفوا منهزمين بلا كثير قتال من المسلمين ، يا أهل الكتاب ، فأيتما آية أعظم حجة و أوضح بينة وأقهر غلبة من هذه التي لو صدرت الأمور بلا تحقيق لها لانفضت الجموع من المسلمين كفارا بها ، أبشارة الله المسلمين بإمداد الملائكة المقربين ، وهزيمة نفير المشركين ، التي نجمت الأمور عليها ، وتناهت الحال بهم إليها أم قبضة من تراب يسير ، ما ملأ المناخر من عدد كثير.

فلئن قلتم : إن هذه آيات بينات ، وعلامات واضحات ولكنا لا نقر لكم بها ولا نؤمن بقولكم فيها .

أفتؤمنون أن محمدا صلى الله عليه وسلم مع ما نسبتموه من الفضل إليه كان يختلقها كذبا من تلقاء نفسه ، ثم يدعيها وحيا من عند ربه وهو لا يدري لعل الأمور تقع بخلاف ما يقول فيظهر كذبه ، ويرفض تبعه ، وإن تزعم أن أصحابه كانوا كثيرا أقوياء ، نشاطا جلداء ، فكان على معرفة بقوتهم ويقين من غلبتهم ، فقد قال الله عز وجل " وإن فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما

يساقون إلى الموت وهم ينظرون " ولم يكن الرسول ولا غيره ليخبر أصحابه من أمورهم بما يجهلون من أنفسهم ثم يدعي ذلك تنزيلا من ربهم ، هذا لا تقبله الآراء ، ولا تقر به الحكماء ولا يحده النظر.

أم تقولون : إنما أراد محمد صلى الله عليه وسلم ببشارته لهم وإخباره ما أخبرهم من هزيمة الله عدوهم ، أن يشجع جبنهم ويقوى ضعفهم ، فيكف إذا لم يبق لما كان يرى من كثرة المشركين وقوتهم ، وضعف المسلمين وقلتهم بظهور الأنباء على خلاف قوله ، وأن يحتال الخبر على غير ظنه ، فيقع ظفر يكذب نبوته ، ويقطع حجته ، ويكون له ما بعده ، وكيف إذا لم ينسب الأمر إلى نفسه وينحي الخبر عن ربه ، ليكون الخطر أصغر والشأن أيسر إن جرت الأقدار بما يحذر ، أو وقعت الأمور على ما يكره ، ولكنه أثبته في كتاب مسطور ورق منشور ، فعل لعمر الله يدل على النبوة التي كان بها واثقا ، ويهدي إلى الوحي الذي كان إليه ساكنا .

وإن عرض لنظرك ، أو وقع في خلدك ، أن الله عز وجل عود محمدا صلى الله عليه وسلم الغلبة وأجراه على المنعة ، فكان يجري على عادة قد عرفها ويسلك جادة قد خبرها ، فلقد كانت الهزيمة في أول وقعة أوقعها الله ، ثم لقد دالت الحرب فيما بعد سجالا فيما بينه وبينهم ، تارة عليه لهم وأخرى له عليهم ،فناصحوا الله عز وجل في نظركم ، وقلبوا فيما يقول أمير المؤمنين فكركم ، فلعمر الله ما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقول للملوك المشركين ، إن الله هزمكم برمية من تراب ، وهو يعلم أنه عنده من الكاذبين ، فأحضر كتابي هذا فهمك ، واصبر له وإن خصمك ، فإن هذه آية عظيمة ، وحجة بليغة ، وبينة عجيبة ، في غلبة العرب .

وأعجب من هذه وألطف ، وأكثر منها وأعظم ، الآية في غلبة العجم ، واستمع : أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول للمؤمنين ـ وكانوا كما قال الله عز وجل:

قليلا مستضعفين . إن قبائل العرب ستتحزب عليكم ، وإن الله سيهزمهم لكم ، وحيا أنزله في الكتاب ، فقال : " جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب " فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل هذا القول عليه بدهور طويلة وسنين كثيرة ، محبوسين محصورين في حومة الموت وعسكر الخوف وخندق القهر ، وذل الحصر سوادهم الأعم وجلهم الأعظم حفاة عراة عالة ، إخوان دير ، وأصحاب وبر ، لا قوة بهم ، ولا منعة لهم ، ولا أسلحة عندهم ، ولا عدة معهم ، قد أحدقت العرب بعسكرهم ، وأحاطت القبائل بخندقهم ، وسالت الأحزاب تصديقا لختم الله عليهم ، تريد أن تزلزل أقدامهم وتهريق دماءهم ، فكان المؤمنون كما وصف الله عز وجل من سوء الحال ، وضيق المآل ، وشدة الكظاظ ، فإن الله قد وصف لهم حالهم ، وأذكرهم فعلهم ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليصف لهم عن الله ما يجهلون ، ولا ليذكرهم من أمره ما لا يعرفون ، حذارا أن تنكسر عزائمهم وتتغير بصائرهم ، فتنهزم أفئدتهم وتموت نجدتهم ، وتختلف كلمتهم ، فقال الله عز وجل " إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلي المؤمنون و زلزلوا زلزالا شديدا " ، حتى قالت طائفة منهم لأهل المدينة "يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا " وقالت طائفة أخرى : يا رسول الله إن بيوتنا عورة ، فأذن لنا ، يقول الله تعالى : " وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا " فبيناهم على تلك الحال قد أجمعت العرب بتفريقهم في الجبال ، وتقسيمهم بالقداح ، وأخذهم بالأيدي ، إذ قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما ينبئهم به من علم الغيوب ، ويبشرهم به من أمر الفتوح ، " إن الله سينصركم على جمع الروم ويغلب لكم جنود فارس فيهزم لكم جنودهم ويورثكم قصورهم ويستخلفكم في الأرض من بعدهم ويبدلكم من بعد خوفكم أمنا " وعدا صدقه الكتاب ، وبشارة نطق بها الوحي ، فقال "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف

الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا " فقال أقوام وأناس ارتابوا حين تضايقت الحال ، وتزلزلت الأقدام ، وطارت القلوب ودارت العيون ، وأشرف الموت " ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا " أيعدنا هزيمة جموع الأحزاب ، وفتح قصور الشام ، وغلبه جنود كسرى ، وقد سالت القبائل علينا من كل جانب ، وأحدق الموت بنا من كل مكان ، فبقينا في مسغبة من الجوع ، ومجهدة من الخوف ، وضنك من الحال ، مقهورين مقموعين ، وقالت الخاصة من المؤمنين : حين عاينوا الجموع من المشركين وذكروا ما خبرهم الله من تحزبهم عليهم ومسيرهم إليهم " هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما " فبينا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في مضايق تلك الحال ، وشدة ذلك الخصال ، وعموم تلك البلايا الباهظة ، والأمور الفادحة ، التي قد أخذ بأنفسهم غمها ، وبلغ مجهودهم كربها رافعين إلى الله عز وجل أيديهم يقلبون في السماء أعينهم إذ أرسل الله على تلك الجنود الكثيفة والجموع العظيمة والأحزاب المقتدرة ريحا من الأرض وجنودا من السماء ، فقطعت الأبنية ، وطيرت الأمتعة ، وسفت التراب في العيون وقذفت الرعب في القلوب ، فولوا مدبرين ، وخرجوا منهزمين ، لا يلوي والد على ولد ، ولا مولود على أحد ، أمر صدق الله فيه قوله ، وأنجز به وعده ، وهزم الأحزاب وحده ، وذكر المؤمنين نعمته فيهم وعرفهم منته بهم فقال " اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا " وقال عز وجل : " ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا " ما كان الله عز وجل ليقتص على المسلمين في أنفسهم ، إلا ما قد رأوه بأعينهم .

لولا أن هذا ما لا ينكره عقلك ، ولا يدفعه نظرك ، لما جادلتك بالكتاب ، ولا نازعتك بالتنزيل ، وإني لأترك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحي ، ما هو أعظم من هذا وأبين وأجل وأوضح ، ولكن ليس لي أن أحاجك من آيات القرآن إلا بما عليه شاهد من برهان ، ومخبر من بيان ، لا يستطيع عقلك ردا له ، ولا قلبك جحدا له ، وكيف ينبسط لسانك ، أو يجترئ قلبك أن يقول : إن محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه بالكذب وهم يعلمون ، فاقتص عليهم من أمورهم ما لا يعرفون لا ما يسوغ لك ولا يجمل بك ، ولا يقبل منك أن محمدا صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه ، كيف ، أما كان يخاف أن يكذبه أصحابه ، وتنتقل أحواله ، وتنتقض أموره ، لعمر الله لو وصفت بهذا من لا يعرف بفضل ولا ينسب إلى عقل لما كان سائغا لك ولا جائزا منك ، فكيف تصف به من يرفع عن الناس قدره ويفضل عليهم عقله ، وتقر أنك لم تر في الدنيا أحدا صنع ما صنع وبلغ ما بلغ : فأيتما آية فيما اقتص عليك أمير المؤمنين أعظم أو بينة أعجب أما كان يتلى على المؤمنين في الكتاب من اجتماع قبائل الأحزاب بجنود عظيمة قبل اجتماعهم بسنين كثيرة ؟ أم ما كان ينادى به القرآن من الهزيمة لهم ، وينطق به الوحي من الفتح عليهم ، أم قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه ، " إن الله عز وجل يؤمن خوفكم ويعز نصركم على الأمم " ، وهو على تلك الحال ، ثم نجمت الأمور على ما قال ، أم عسكران مطابقان ، وجيشان متقابلان ، باتت الريح تحوس أحدهما حتى انهزموا ، وبات الآخرون منها في عافية وغفلة حتى أصبحوا ، فأحسن النظر في أمرك والتثبت في دينك إن شاء الله .

وأعلم أن من أعظم الآيات وأبين الدلالات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وحقه وأن ليس يتقول شيئا من تلقاء نفسه ، أنه قال في عنفوان أمره " إن الله سيظهر ديني على الدين كله " وجاء مع ذلك بأثرة عن ربه في كتاب مخطوط وتنزيل

محفوظ، فأي أمر به لك أدل أو أيهما عندك أعجب .

إذ كنت بنبوته مصدقا ، ولرسالته محققا ، الخبر الذي أخبره أم الفعل الذي صدقه؟ لئن نظرت بعقلك ، وقلت في نفسك كيف ترقت إلى هذا نيته ، وارتفعت نحوه همته ، أم كيف امتدت إليه فطنته ، وقويت عليه رويته ؟ بل كيف دعته إليه نفسه وشجعه عليه قلبه ، ودخل فيه طمعه وطاوعه فيه لسانه ، وهو يذكر جنود كسرى ، وجموع الروم ، وملوك الترك ، وملوك الشرك ، وقيول اليمن ، وصناديد الأمم ، إن هذا لعجب ، ولاسيما إذا لم يكن في إرث ملك قاهر ، ولا كنف عز غالب ، ولا معدن علم سالف.

ولئن أعدت النظر وكررت ، فقلت : كيف وافق خبره أثره ، وكيف صدق فعله قوله حتى غلب الشرق والغرب ، إن هذا لعجب ، وأعجب من هذا أمر يدلك أمير المؤمنين عليه ، ويهديك إن شاء الله إليه ، لو قلت لأهل مملكتك ومن قبلك من أمتك : هل بلغكم أو تقرر قبلكم ، أنه كان في الدهر الأول ، والعصر الخالي أحد مثل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدأت الأمور به مثل حاله من الوحدة والضعف والذلة والقلة ، وصدرت الحال به كفعاله في الغلبة والمنعة ، والقهر والظهور ، وغير ذلك ؟ لقالوا : لا .

ثم أنت لا تؤمن بمقالته ، ولا تقر برسالته ، إلفا لدينك ، وضنا بملكك وطمعا في قليل من الدنيا قد نعاه الله إليك ، ورغبة في صبابة عيش غير باقية في يديك ، فهذا عجب ، وأعجب من هذا أمر يقفك أمير المؤمنين على نور حقه ، ويوضح لك إن شاء الله بيان أمره ، أصبحت العرب طرا والأمم جميعا في محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا رابع لهم ولا مخرج للحق من بينهم ، رجل مصدق به من المؤمنين ، ورجل مكذب به من الكافرين ، ورجل شاك فيه من المنافقين .

فأما الشاك فلما قيل له أخرجت نفسك من الحق ، وأبرأتها من الصواب ،

وأقررت عليها بالخطأ . لقولك : لا بد أن يكون الحق في التصديق أو التكذيب ، ولست على واحد منهما اعتزل عنها .

وأما المكذب فلما قيل له : أنت منكر وا لمنكر ليس بمدع ، ومن لم يدع لم يلزمه بينة ، ولا يسأل عن حجة ، اتبع صاحبه ، وايم الله على ذلك ، لو سئل هذا المدعي عن بينة ، وكشف حجته ، فقيل له : من أين عرف قلبك ، وأيقنت نفسك إيقانا لا يخالجه شك ، ومعرفة لا يشوبها ريب ولا ينازعها شبهة ، أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس برسول ، لما درى ما يقول ، لأنه لا يستطيع أن يتقول على الرسل ، ولا أن يتكذب على الكتب ، فيقول قد أخبر الله فيها أنه لا يبعث نبيا ، ولا ينزل وحيا في كتاب مسطور بعد التوراة والإنجيل والزبور ، بل قد يجد أهل الكتاب في أقاويل رسلهم وأخابير كتبهم ، أن الله تبارك وتعالى ينزل كتابا جديدا أو كلاما حديثا ، بعد خراب بيت المقدس في آخر الزمان ، ولم ينزل بعد ذلك كتابا إلا القرآن .

وأما الرجل المصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم فقيل له : أما أنت فقد ادعيت ، والمدعي يسأل عن الحجة ، ويقبل منه البينة ، فما بينتك ومن يشهد لك ؟ فقال : ألم تقولوا : إن الحق لا يخرج من بيننا ، ولا بد أن يكون مع بعضنا ؟ قالوا بلى ! قال : فأية بينة أحق وأعدل ، وأي شهود أزكى وأفضل من شهادتكم بسقوط صاحبي وثبوت الحق من بعدهما في يدي ؟ قالوا : إن الأمر لكما تقول ، ولكن البينة أشفى للصدور ، فأقام بينة من الكتاب ، وشهودا من الوحي وآيات سوى ذلك عظاما ، وبينات عوام ، من كلام لا يقدر عليه الخلق ، وصدق لا يكون إلا من قبل الرب ، شبيها بما أورده أمير المؤمنين عليكم ، وكتب به في صدر كتابه هذا إليكم ، مما قد تشهد له قلوب الأمم ، ويزكيه فعال العرب .

فلما أقام بينته ، وثبتت حجته ، ووجب حقه ، وقضي به له ، قيل : وكيف

توسعت الأمور عليك، وضاقت المقالة لك، أن تقول: إن الله لا يبعث نبيا بعد محمد. صلى الله عليه وسلم. ولا وحيا ينزل غير القرآن، فأبطلت الكتب المحدثة وأكذبت الوثيقة، ولم تترك وحيا غير القرآن، ولم يجز للنصارى أن تقول: لا نبي بعد عيسى عليه السلام، ولا كتاب خلف الإنجيل، وعن ذلك من أخبار الكتب ما قلنا كل متنبئ بعد نبينا كذاب، فشاعت وجازت الحجة، و وضح العذر، وأما النصارى فيجدون في أواخر كتبهم، وأقاويل رسلهم، أن الله عز وجل ،يبعث نبيا حديثا، وينزل كتابا جديدا، فليس لهم أن يكذبوا نبينا. صلى الله عليه وسلم. ولا أن يردوا كتابا.

فهؤلاء الثلاثة: أما الشاك فسقط، وأما المنكر فبطل وأما المصدق فثبت ثبوتا ليس فيه مدخل شبهة ولا موضع لحجة، ولا معلق لمنازعة، وذلك أن المنكر لوجوب حقه والشاك في ثبوت صدقه لا يجد بدا من أن ينحي الصدق عن الخلق ويخلي الدنيا من الحق، وهذا قول المكذبين بربهم الشاكين في بعثهم فأحسن النظر في معانيه ينكشف لك عما فيه إن شاء الله.

ومن أبين آياته وأدل علاماته. صلى الله عليه وسلم. و وسع له فيما صدر إليه: أنه لما أخبرت النصارى واليهود أنهم لم يجدوا محمدا. صلى الله عليه وسلم. في التوراة والإنجيل موصوفا مكتوبا، تجمعت العلماء منهم، وتدارست الكتب فيما بينهم فلما نظروا إلى اسمه وعاينوه بنعته، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ويستفتحون بذكره على من سواهم كفوت طائفة حسدا من عند أنفسها، وجحدا من بعد ما تبين لها، وآمنت طائفة تصديقا بكتابها وخوفا من ربها.

فلعمر الله لولا أن الذين آمنوا بحقه وصدقوا بأمره، رأوا صفته عيانا، وقبلوا نعته إيقانا، لما فارقوا أديانهم، ولا جادلوا إخوانهم، حتى وقفوهم على اسمه ونسبه، وصفته وعلامته وهم علماء بني إسرائيل، وحملة الإنجيل، من أهل الكتاب الذين

احتج الله عز وجل بهم على العرب ، فقال عز وجل : " أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل " ولعمر الله إنها لآية عظيمة ، وحجة بليغة ، ذكرها الله في كتابه ، وجعلها على العرب من بيناته ، فقال لهم : " قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا " يقولون وعدنا أن يرسل رسولا ، فقد أرسله وحقق قوله ، وصدق وعده ، واحتج النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وذكره ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليجادل ويحتج في أمرهم بكذب و باطل ، ولم يكن ليقول للنصارى واليهود ، فيما ذكر الله من صدق الموعود ، إنه في التوراة والإنجيل مكتوب موجود ، إلا وهو من ذلك على حق يقين ونور مستبين ، وكيف كان يستشهد من التوراة والإنجيل بكذب ، ويتقول عليهم الباطل مع حرصه على تصديق أهل الكتاب ليستدعي به إيمان أحياء العرب ، أما كان يعلم أنه إذا قال لهم إنه موجود في مثاني كتبهم ، وسمى على أفواه رسلهم فلم يجدوا خبره يقينا ، ولا وصفه مستبينا أنهم سيدبرون عنه إدبارا تزداد به العرب نفارا ، إلا أن يقولوا خطأ من علمه ، وهواء من خبره ، فكيف لم يحظ إذا في كتبهم حرفا غيره ، ولم يخالف منها شيئا سواه ، سبحان الله ، لقد أكثر المؤمنون العجب من ذهاب الأساقفة بكم ، فأنتم إن تنكروا ما يقولون لكم . مما ليس لذي لب أن يأذن له أن يؤمن به . ولا أن ينبذ إليه سمعه ، يقولون : إن أنبياء الله ورسله المبعوثين بالرحمة إلى خلقه ، لطفت النبوة منهم و وقعت الأخبار المنزلة عليهم على صائر الأمور ، وغوامض الخطوب ، فسار الناس عليها ، وأشاروا لهم إلى طلبها فهي مكررة في مثاني كتبهم ، وبطون صحفهم ، وأقاويل رسلهم وتركوا من كلام الله النبأ العظيم ، والأمر الكبير ، والذكر الحكيم الذي ملك آفاق الأرضين ، واستفاض على جميع العالمين لم يذكروه بخير يأتمرون به ، ولا بشر ينتهون عنه ، كلا ما ترك الله على هذا خلقه ، ولا بهذا وصف تبارك وتعالى نفسه ، إنه لأرحم الراحمين وأحكم

الحاكمين.

ولئن رجعت إلى قلبك ، لتقولن في نفسك : لعمر الله لو كان هذا الأمر الذي طلع الشمس وامتد امتداد النهار فبلغ مشارق الأرض ومغاربها وسهول الآفاق وحزونتها ، حقا وصدقا وعدلا ، لبشرت الكتب به وتنبأت الرسل عليه ، ودعت النذر إليه ، تزيينا له وترغيبا فيه ، وأمرا به ، ولو كان ضلالة وجهالة وعماية ، لتقدموا في التحذير منه ، والتزهيد فيه ، والتثبيط عنه فيدعو ذلك إلى أن تنظروا إلى كتب الأنبياء وأقاويل الرسل ، فايم الله لئن طلبت لتجدن ، ولئن اجتهدت لتوفقن ، وما الصواب بممنوع ، ولا الخير بمحظور ، ولقد كانت العلماء بالكتب والبصراء بالتأويل تجده ، ولكنها كانت تكتمه بتحريف كلام الكتب عن مواضعه ، وصرف تأويل الحكم إلى أشباهه حسدا من عند أنفسهم ، وبغيا بعد ما تبين لهم ، ثم لقد اقتديتم بهم وجريتم معهم وأخذتم عنهم بلا حجة لكم ، ولا قوة معكم إلا الاقتداء بالآباء والاتباع للآثار ، فاتق الله في نفسك ، واتهم الرجال على دينك ، ولا تجعل النظر إلى غيرك من ذوي الشك في القلوب ، والفسخ في .... [6] والتهم في التعطيل الذين لعلهم يعرض لآرائهم ويقع في أوهامهم أن يقولوا : فلعل ما يتلو عليكم أمير المؤمنين من آيات القرآن ، ويقرع لكم من حجج الوحي شيء زيد في المصاحف بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا ما لا يحتمله عقل صحيح ولا نظر قوي ، وذاك الشاك في شهادات الرجال ، متفقة من بلدان وأمصار مختلفة ، وشعوب وقبائل متفرقة ، ليس يدعوهم إلى ما شهدوا دين ، ولا يحملهم على ما اتفقوا عليه دنيا ، لا يستقيم له أن يؤمن بما لم تدركه جوارحه وتحيط به حواسه ، لإسقاطه حجة الإجماع وإبطاله شهادة العوام ، واتفاق المختلفين دلالة واضحة ، فهو سائلكم عن الحجة في الإنجيل والبينة على التوراة شكا

[6] كذا في الأصل وظاهر أن كلمة بعد (في) سقطت من الناسخ سهوا .

في الرب وتكذيبا بالرسل ، فما كنت قائله له أو مجيبه به في كتابكم ، فأجبه بمثله في كتابنا ، وإن كانت الأحوال منها غير معتدلة ولا مؤتلفة ولا مرتفقة ولا واحدة ، تعتدل حالاهما ، ويتفق أمرهما ، من كتابكم ما لم تنزل به الملائكة وحيا كالقرآن ، ولم يشافه المسيح به أصحابه باللسان ، إنما كان فعلا أثبت من بعده ، ولم يكن الفعال موضوعا بعده ، وليس يكتب أمير المؤمنين بهذا إليكم شكا فيه ، ولا يورده عليكم مرية به .

ولقد علم أمير المؤمنين أن كتب الله عز وجل محفوظة ، وأن حججه مخزونة ، لا يزاد فيها على تقادم عهد ، ولا ينتقص منها على تقارب دهر ، وأن ذلك ثبت في الإنجيل من بعد عيسى عليه السلام ، وأنه قال لمن اجتمع إليه من الحواريين "بالوحي أكلمكم والأمثال أضرب لكم " فأمثاله المضروبة كلام ، وكلامه الرائع وحي ولكن ما بال الشك ينفى عن كتابكم ، بحجة الاجتماع عليه عندكم ، وهو على ما وصف أمير المؤمنين لكم ، وسيان في تنزيل كتابنا ، وقد أدرك شهادة دينه ، إما ما قربا من عهده ومعاينة وحيه واجتماع على حفظه ، هذا حكم مختلف.

فقل للذين يشكون فيه ويرتابون به : أوقعوا أوهامكم على حالات الأوقاف التي تعرفون وقوتها [٧] بطبقات الرجال الذين يتهمون .

فإن قالوا : أما طبقات الرجال التابعين ، وحالات زمان أمير المؤمنين فذلك ما لا يسوغ الأقاويل فيه ، ولا تدخل الشبهة عليه ، لانتشار القرآن وامتداد الزمان ، وكثرة الحملة ، لآياته فيهم ، والحفظة للسانه منهم ، ولكن الدين الذي نزل به القرآن ، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ، وكيف بوقوع تهمة أو دخول شبهة

[٧] كذا في الأصل

على أقوام (لبث) النبي صلى الله عليه وسلم عشرين حجة فيهم يتلو كتاب الله عز وجل في كل عام عليهم ، حتى حملوه في صدورهم ، وحفظوه في قلوبهم ، وكرر في آذانهم مسموعا وأمر على أبصارهم مكتوبا ، وجرى على ألسنتهم متلوا ، وجمعه كثير منهم محفوظا ثم توارثوه فيهم وتداولوه فيما بينهم حتى أدوه إلينا ، وأوفوا به عندنا من مواضع متفاوتة وأصناف وأجناس متباينة ، على كلمة واحدة .

فإن قالوا : اتفقت الرجال على الزيادة فيه وأمكنت الحال من الحمل عليه ، فليعلموا أن المؤمنين المخلصين ليسوا في الزيادة متهمين ، وأن المنافقين الملحدين ليسوا على ذلك بقادرين ، وكيف يقدر القليل من المنافقين على مخالفة الجمع من المؤمنين بعد ما حفظته قلوبهم ، و وعته أسماعهم ، ثم تكتتم القدرة لهم وتستتر الزيادة منهم ، هذا ما لا يقدر عليه منافق ، ولا يطيقه مشرك ولا فاسق ، وايم الله أن لو قدرت اليهود على الزيادة في الإنجيل لأفسدوا كتابكم وغيروا دينكم ، ولو جعل الله المنافقين على الزيادة في كتابه قادرين لبدلوا ديننا وغيروا حالنا ، ولو كانوا لذلك مقرنين وعلى ذلك مقتدرين ، لكان الذي كتب به أمير المؤمنين إليكم ، وأورده من حجج الله عليكم أولى ما تلقون ورأس ماتقترفون ، فلا تلقين إلى ما قاله المضل سمعك و لا تنصت الدهر إليه ذهنك ، فإنه اتخذ الشك في كتابنا ذريعة إلى الإخلال بكتابك ، سلما إلى الشك في دينك وعلة في الطعن على ملتك ، ولكن قل يا ولي الشيطان : أني وقع لك إيمان بأنك من ولد فلان ؟ أتقول : شهدت الجيرة واجتمعت العشيرة واتفق المختلفون فذهب الشك وزال الريب و وقع الإيقان من غير العميان ؟ صدقت ! فما بال الشك فيما اجتمعت العامة على القول به واتفقت الجماعة في الشهادة عليه من آيات الكتب وبينات الرسل ، وإن ذهب بهذا عن أمره ، وباعده عن شبهه ، فتؤمن أنه من نطفة خلق ، ومن رحم خرج ، فإن جحدوا بي ألا يؤمن بما لا يرى فقل : أرأيت لو كنت سميعا أعمى ، أكنت تؤمن بشيء مما في الدنيا : من

سماء أو هواء أو بحر أو سبع أو أرض أو جبل أو شبه ذلك مما لم يدركه العيان ولم يقبله إلا عن الناس ؟ فإن قال نعم فقل : فهل لك إلا بالاجتماع الكفر بالرب ، وما لدائه دواء غير الصلب . فاتق الله إذ كنت إماما وقائدا لأهل ملكك لا نقدهم إلى النار فتحمل أوزارهم مع وزرك .

فإن من أبين آيات الوحي ، وأدل علامات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يبتدع في الدين أمرا من تلقاء نفسه ، ولا يتقدم في الأمور بين يدي ربه ، والله أظهر فيما أنزل من الكتاب أمورا كان يحسبها صلى الله عليه وسلم مستورة ، فقال تأديبا له ، وإخبارا لمن آمن بعده " وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه" وقال " عبس وتولى أن جاءه الأعمى و ما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى كلا إنها تذكرة " وقال تعالى : " ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا " وقال له حين صرف قلبه عن بيت المقدس إلى البلد الحرام حين سكنت القلوب إليها ، وأنست النفوس بها : " ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير " وكانت القبلة التي صرفه الله إليها وأمره بها عظيمة على المنافقين واقعة بخلاف الكافرين ، كبيرة إلا على الذين هدى الله من المؤمنين ، فإنهم قالوا : إذا اختلفت القبلتان وافترقت الجهتان ، كانت الطاعة فيهما واحدة لا اختلاف فيها ولا افتراق عليها ، وكيف تختلف الطاعة من رجل بنى بأمر الله عزوجل ثم هدم بوحي الله .

فإن قلت : إن الله حوله عن أفضل القبلتين وأقوم الجهتين ، فلا سواء في الفضل

البين والخير السر ، قبلة سلط الله عليها الكافرين ولم يمنعها من الظالمين ، وقبلة منعها بجنود من عنده ، وعصمها بغير ما حول من خلقه ولا حرمة يدعيها أحد ممن فيها ، فأرسل طيرا أبابيل ترمي الأعداء بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ، فإن تقل : هذا خبر ننكره وقول لا نعرفه ، فبأي حديث بعد هذا تؤمن ؟ وتشهد لله عز وجل أنه من قبله ، وأنتم تعلمون أنه أنزل الله عز وجل سورة الفيل على قوم أدركه منهم بشر كثير.

فإن قلت : إن محمدا صلى الله عليه وسلم خبرهم بما عاينوه وأدركوا خلافه نقل: إنه أراد أن يفرقهم عنه ويوحشهم منه ، وأحب أن يرموه بالكذب ويقذفوه بالحمق ، ويصموه بالجنون ويظنون به الظنون ، كلا ! ما كان نبي ولا غير نبي ليجاهد أقواما بخلاف ما رأت أبصارهم وشاهدت آباؤهم ، فيخبرهم بخلاف ما شهدوا ، وتكذيب ما عاينوا ، فلا تكونن في هذا من الممترين ، ولا بأمر الفيل من المكذبين .

فلعمر الله لو كان من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ما تلحد أنت وقومك إليه لما قام معه رجلان ولا اختلف فيه سيفان ، وأن فيما صنع الله عز وجل بالفيل وأتباعه ، دلالة على قبلة الله وأنبيائه ، فاتق الله ، فقد شرح أمير المؤمنين علامات النبي صلى الله عليه وسلم وكشف الأغطية لك عن النور بآيات الوحي فإن مالت الأهواء بك ، وغلبت الأساقفة عليك ، وحضرك الرؤساء الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى بلا حجة عندهم ولا سلطان أتاهم فقل : أنبئوني عما اجتمعت عليه النصرانية وذهبت إليه بهم المعاني من تشقيق الكلام وتصريف الكتب : أحروف تتعسفونها أم لغة تعرفونها؟ فإن قالوا : إنهم بغير لغة يتكلمون ، فهم إذا قوم يلعبون ، وإن قالوا : إنهم يتكلمون بلغة معروفة ومعان معلومة ، فقل أخبروني عن قولكم أب وابن ، أهما ما تعترف العقول من المنطق ويقع في القلوب من المعنى أم لا ، فإن قالوا لا ، ليس ذلك

بالذي تذهب أوهام العباد إليه ، ولا بالذي تقع الحقائق في الآباء والأبناء عليه ، إنما هو كقول الله عز وجل في التوراة لإسرائيل بكري لا يعني ولادة الرحم ، وكقول المسيح عليه السلام للحواريين " أنتم إخوتي " لا يعني أخوة النسب ، فذلك قول لا يجدون معه بدا من أن ينسبوا عيسى عليه السلام عبدا ، وإن قالوا : بل هو ما تجري به ألسن العباد ، ويقع في قلوب الخلق من الولادة المعروفة والأبوة المعلومة ، فليخبرونا متى كان الأب والدا ، والابن مولودا أقبل الولادة أم بعدها ؟ فإن قالوا قبلها رجعوا عن القول الأول بتثبيت الأبوة ، إلا أن ذلك ليس بالشيء الذي تذهب إليه الأوهام ، ولا بالمعنى الذي يقع في قلوب الأنام .

ولا بد إذا سقطت الولادة المعروفة وبطلت الأبوة الموجودة ، أن يقولوا إن الأب والابن اسمان علقا على غير معنى ، ونسبان أضيفا إلى غير حق ، فيقرون أن عيسى عليه السلام خلق مثلهم ، وأنهم يتكلمون بغير لغة أحد منهم .

وإن قالوا : إنما كان الابن مولودا والأب والدا بعد الولادة ، فقد أقروا بأن الابن حدث مخلوق وعبد مربوب لقولهم إنه لم يكن حتى ولد ، ولم يولد حتى خلق ، وقل لمن يقول الزور العظيم ، ويقذف بالإفك المبين : أليس الأب أبا على حياله ولم يزل ، والابن ابنا نجل وروح القدس كذلك ؟ فإن قالوا نعم ، فقد أقروا بأنهم ثلاثة متباينة ، ووقعت عليهم ثلاثة أسماء متفاوتة ، وتركوا قولهم إنهم ثلاثة أصلهم واحد .

وإن قالوا الأب والابن وروح القدس واحد ، ولكن بعضه أب وبعضه ابن وبعضه روح قدس ، فقد دخلوا في التحديد الذي هو عيب عندهم ، وقالوا في التبعيض بما هو كفر قبلهم ، وإن قالوا ليس مبعضا ، ولا مجزأ ، ولا محدودا ولا ثلاثة متباينين ، فإذا هم قوم يلعبون ، يقولون الأب ابن ، والابن أب ، والوالد مولود ، والمولود والد ، والكبير صغير ، والصغير كبير ، والقليل كثير ، والكثير قليل ، وهذا من أبين المحال وأخلف

المقال . وليس من المنطق ما لا يوجد في لغة عرب ولا عجم ، ولا لسان أمة من الأمم ، وإنما أرسل الله عز وجل كل نبي بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله الظالمين ، ولولا ذلك لما فهمت الأمم مذاهب أقاويل الرسل ولا معاني أحاديث الكتب ، فلا تطع الذين يلعبون بأنفسهم ، ويتكلمون بغير لغتهم ، ويقولون : الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ، وهذا محال في مجاري المقال ، ومعاني الفعال.

لعمر الله لئن اتهمت عقول الأساقفة على دينك ، واهتممت بالنظر في توحيدك ، لتعلمن أن الواحد لا يكون ثلاثة وأن الثلاثة لا تكون واحدا ، إلا على وجه ما له ثان يقول به ، ولا منه مخرج تستريح إليه ، فألق نحوه سمعك ، وأنصت إليه فهمك ، فإن أمير المؤمنين واصفه لك ، وليس واقعا إلا على المخلوقين ، و لا لازما غير المحدودين ، ولا داخلا على رب العالمين وهو أن يكون الشيء أصله واحدا وأجزاؤه كثيرة ، من نحو الإنسان ، وهو أصل يجمعه اسم ، وله أجزاء تلزمها أسماء ، فليس الجزء بالأصل ، ولا الأصل بالجزء ، ولكن الجزء بعض الأصل ، فإذا أردت الجزء ، قلت يد الإنسان ، وسمع الإنسان ، ولولا أنه محدود مخلوق مجزأ مبعض لما جاز هذا القول فيه ولا دخل هذا المثل عليه ، وكذلك الشمس ، الأصل واحد وهي شمس والأجزاء كثيرة وهو عين الشمس وضوء الشمس وشعاع الشمس ودقيقها وغليظها وحرورها وأعلاها وأسفلها وأشباه ذلك .

فلئن قلت : سميت كل جزء من الأجزاء على حياله إنسانا ، وكل جزء من الشمس دون أصله شمسا ، ونسبت فعل الأصل إلى بعض أجزائه ، وتركت أن تنسب الأصل فاعلا ببعض الأجزاء كما تقول بسط الإنسان بيده ، ومشى برجله ، ونظر بعينه ، ثم ضربت ذلك لله عز وجل مثلا ، وجعلت الله له قياسا ، فقلت : الأصل واحد ، وهو الله عز وجل ، والأجزاء كثيرة ، وهي أب وابن وروح القدس ، وكل جزء منها إله

على حياله ورب دون غيره لم تجد بدا أن تلحق اليد والعين والنفس بالأب والابن وروح القدس ، فتكثر آلهتك ، وتحدد ربك ، وتترك قولك إن الله ليس محدودا ولا مجزأ ولا مبعضا إلا أن يكون إنما تريد مذاهب الأسماء فتقول المعنى واحد ، وهو الله عز وجل ، والأسماء أب وابن وروح القدس ، فإن كنت تقول هذا وكنت إنما تعبد أسماء فما تجد بدا من أن تعبد الأسماء كلها وتقول إنها آلهة على حيالها ، حتى تقول باسم ارحمني ، وبثان اغفر لي فاتقوا الله يا أهل الكتاب ، فإن الله عز وجل ليس بأب ولا ابن ولا اسم ولكن له الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون .

فإن أشارت الأساقفة إلى بعض الإنسان باليد والرجل وأشباه ذلك ، وقالوا ليس إنسانا ، فقل لا ، ولكنه للإنسان وقل هو إنسان بكماله ، وكذلك إن أشاروا إلى بعض الشمس فقالوا : أليس هذا الشمس طالعا ، فقل لا ، ولكنه بعضها ، ولو كانت الأسماء التي تقع أبصاركم عليها وتشير أيديكم إليها من الشمس والسماء والهواء شمسا وهواء وسماء لكانت الشمس والهواء والسماء أكثر مما يبلغه الإحصاء ، ولو قصدت بالإجابة لمسالك هذه الأدوية ، لبطلت الحجج الداحضة وانقطعت الأقاويل المتناقضة ، وسل من قبلك من أساقف أمتك وشمامسة أهل ملتك الذين يزعمون أن عيسى المسيح ويرفعونه أن يكو عبدا ، على أي شيء وقع اسم المسيح من عيسى على الروح أم الجسد أم على كليهما ؟ فإن قالوا : وقع على الروح نفسه ، لأن الروح إله دون غيره ، فقد أقروا بأن إلههم يأكل ويشرب ، ويمشي ويركب ، لأنهم يجدون ذلك من فعل عيسى مبينا قبلهم موصوفا عندهم ، فإن قالوا : وقع اسم المسيح على الجسد بعينه ، فكان الجسد هو المسيح إذا دون غيره ، والمسيح إذا مخلوق عندهم ، والإله إنسان إذا مثلهم ، فلم يعبدون المخلوق ويدعون من خلقه وبرأه ، وإن قالوا : وقع الاسم على الروح والجسد جميعا ، فلن يجدوا مخرجا ولا بدا ولا محيصا إذا أوقعوا الاسم عليهما من أن

يضيفوا الأعمال إليهما ، فيقولوا : إن الجسد المخلوق هو خلقهم ، وإن الروح الخالقة قد ماتت قبلهم ، وذلك لما يجدون من ذكر موت عيسى عليه السلام في الكتب عندهم ، وفي الإنجيل الذي قبلهم ، وسل من قبلك عن الأب والابن ، فقل أيهما أعظم وأيهما أصغر ، فإن قالوا : الأب أعظم والابن أصغر ، فقد جعلوهما متباينين ، وإن قالوا : هما واحد وكلاهما عظيم ، وليس الأب بأعظم من الابن ولا الابن بأصغر من الأب ، فقد نقض حينئذ جوابهم ، وأكذب المسيح عليه السلام كلامهم حيث يقول " لو كنتم تحبوني لفرحتم حيث أذهب إلى إلهي فإن إلهي أعظم مني " فلم يقل أعظم مني ، إلا وهو مر بأنه أصغر منه ، وسلهم عن قول المسيح " أنا أذهب إلى إلهي وإلهكم " فقل : من هذا الإله الذي ذهب عيسى إليه صلى الله عليه وسلم : إله في السماء متباين منه منقطع عنه ؟ فهما إذا اثنان متباينان ، أم إله كان به متصلا وكانا جميعا واحدا ؟ فكيف إذا يجوز له أن يقول إذا أذهب إليه ، إلا أن يقولوا : إن بعضه ذهب إلى بعض ، وهذا مما لا يجوز عندهم في صفة الرب عز وجل .

وسل من قبلك : أخرج المسيح من بطن أمه مريم بكماله حتى كان البطن منه فارغا ، وكان هو منه بكماله خارجا ؟ فإن قالوا : نعم ، فقد انكسر قولهم إن الله بكل مكان ، وإن قالوا : لم يخرج المسيح ولم يخل البطن ، فقد كذبوا إذا في قولهم : إنه قد خرج وأقروا أنه قد ولد ، فتعالى الله عما يصفون وتنزه عما يشركون ، وسلهم لم هبط عيسى إلى بطن مريم وتجسد باللحم والدم ، فإن قالوا ليمحق الخطايا من الأرض ويربط الشيطان عن الخلق .فقل : كيف إذا لم يربطه عن نفسه ، وكيف جلاباه من اليهود بصلبه ، ولم سلط على أهل دينه يتبعون في كل شعب ويقتلون بكل واد.

وقل للذين يقولون : إن الخالق في كل مكان من السماء والأرض وغير ذلك ، أيهما أعظم ؟ المحيط المشتمل ، أم المخلط المشتمل عليه كما يقولون ؟ تعالى الله عما

يشركون ، فإن قالوا : إنما التحم بعضه دون بعض ، فقد حدوا وبعضوا ونقصوا وانتقصوا ، وإما قالوا فلن يجدوا بدا من أن يقولوا : إن بعض المسيح الذي جعلوه ربهم ، وهو إله عندهم ميت بعضه جيفة ، وإن بعضه حي طيب ، لأنهم زعموا أنه التحم بجسد حي فيه روح فلا بد إذا أن يدخل عليه ما يدخل على الأجسام الحية من الخوف والفزع والفرح والعطش وأشباه ذلك ، وهو عندهم كفر عظيم وإفك مبين ، فاتق عقوبة الله ربك ، ولا تمش مكبا على وجهك ، ولكن اطلب والتمس وابحث ، فقد قال عيسى عليه السلام في الإنجيل " من سأل أعطى ، ومن طلب وجد ، ومن استفتح فتح له " .

أجمع العلماء والبصراء الذين عندك ، والأساقفة والرهبان الذين قبلك فقل : لأي شيء نسبتم المسيح إلها وجعلتموه ربا ، ونجد الله سماه في الكتاب ابنا ، وقد تجدونه قال : " إني أذهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم أيضا " وهذا كلام يحتمل وجهين أحدهما أولى به ، وقول لا يحتمل إلا وجها وهو الربوبية أم كيف تنظرون إلى كلامه "أذهب إلى أبي وأبيكم" فتفردونها في نفسه ، وقد قالها فيه وفي غيره .

فاتق الله وكن من القائمين بالحق ، الموحدين للرب ، إن أمير المؤمنين قد ضرب لك أمثالا جمة ، وصرف إليك مسائل كثيرة ، وبين لك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحي قليلا من كثير ، واضحا من تفسير لا تمتنع العقول من التصديق به ، ولا القلوب من الإقرار به .

وسيذكر لك أمير المؤمنين من علامات النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل ما يكتفى به إن شاء الله وباليسير منه ، لأن كتب الله عز وجل محفوظة ، وحججه محروسة ، لا يزاد فيها ولا ينقص منها ، وإذا وجدت فيها كلمة تدلك على حق وتهديك إلى رشد ، فلست واجدا أخرى تصدك عنه وتشككك فيه ، إذا تلي ذلك

بالحق ووضع على الصدق ، ولكن ضلت اليهود والنصارى بتحريف تأويل الكلام وتصريف تفسير الكتب ، وأمير المؤمنين يسأل الله العصمة والتوفيق .

من ذلك ما قد شهد به عيسى عليه السلام عندكم وبينه في الإنجيل لكم ، إذ قال للحواريين :أنا أذهب وسيأتيكم البارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه إنما يقول كما يقال له ، وهو يشهد على وأنتم تشهدون لأنكم معي من قبل الناس بالخطيئة ، وكل شيء أعد الله لكم يخبركم به " .

وترجمة البارقليط ، أحمد : هذا ما لا شك ولا مرية فيه ، وهو الذي يخبر بما وعد الله المؤمنين وصالحي الحواريين في القرآن ولستم تجدون ذلك في التوراة ولا في الإنجيل .

ومن ذلك قول أشعيا النبي عليه السلام " قيل لي أقم بطارا ما ترى بخبري ؟ قال : أرى راكبين بعيرين مقبلين أحدهما يقول لصاحبه ، سقطت بابل وأصنامها المنحوتة" .

ولسنا نعلم نبيا ركب بعد موسى صلى الله عليه وسلم بعيرا إلا محمدا صلى الله عليه وسلم كثيرا .

ومن ذلك قول داود عليه السلام : " اللهم ابعث جاعل السنة كي يعلم الناس أنهم بشر " يقول كي يتبين الناس أن عيسى عليه السلام إنسان ، ولسنا نعلم نبيا وضع سنة تنسب إليه إلا محمدا صلى الله عليه وسلم ، أما عيسى فإنه نصب سنة موسى عليه السلام .

ومن ذلك قول حبقوق المتنبئ في زمان دانيال " جاء الله من السماء والقديس من جبال فاران ، وامتلأت من تحميد أحمد وتقديسه ، ومسح الأرض بيمينه ، وملك

رقاب الأمم " . وقال أيضا " تضئ لنوره الأرض ، وتحمل خيله في البحر " ، فإلى من ينحو هذا القول ، وإلى أين يذهب بهذا المعنى ؟ لئن ذهب به إلى غير الذي تحمل خيله في البحر ، وبدأ من جبال فاران أمره ، وغلب على الأرض ومسحها ، وملك رقاب الأمم كلها : لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون .

ومن ذلك قول داود عليه السلام في الزبور : " صدقوا وسبحوا الرب تسبيحا حديثا سبحوا الذي هلله الصالحون ، ليفرح إسرائيل بخالقه ويتوب صهيون من أجل أن الله اصطفى له أمته ، وأعطاه النصر وسدد الصالحين بالكرامة يسبحونه على مضاجعهم ، ويكبرون الله بأصوات عالية ، بأيديهم سيوف ذات شفرتين ، لينتقم الله من الأمم الذين لا يعبدونه ، ثم يقيد ملوكهم بالقيود وأشرافهم بالأغلال " فأيتما أمة يكبرون الله بأصوات وأذان الصلوات الدائمة وعلى كل شرف وعند كل حرب ، وأيتما أمة كانت سيوفها ذات شفرتين إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك قول أشعيا: " سبحوا الرب تسبيحا حديثا ، ويسبحه من آفاق الأرض فرح يكون في بني فيار " . وبنو فيار قريش أهل فاران الذي نزل فيه القرآن ، وأيتما أمة تسبح من آفاق الأرض إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم عندي أكدى .

ومن ذلك قول أشعيا : " عبدي الذي وجب به حبي الذي بشرت به نفسى أفيض عليه روحي ، يوصي الأمم بالوصايا ، لا يضحك ولا يسمع صوته في الأسواق ، ويفتح العيون العور ، ويسمع الآذان الصم ، ويحي القلوب الغلف وما أعطيه لا أعطي غيره ، أحمد يحمد الله حمدا حديثا ، تهليله يأتي من أقصى الأرض ، يجوز الماء بشدة أمواجه ، ويفرح [٨]زكورها ، سكانها يحمدون الله على كل شرف ويكبرونه على كل

---

[٨] هكذا في الأصل

رابية " .

ومن ذلك قول داود عليه السلام في المزمور الخامس والأربعين ، يقول الله عز وجل لمحمد في الزبور : " انصبت رحمتي على شفتيك من أجل ذلك باركتك الدهر[9] تقلد السيف على الأمم أيها الجبار على الأمم بالقتل والأسر والسباء بهاك وحمدك أحمد يغلب البر منك كلمة الحق وذللت لك الأشقياء سيفك يحسمه يمينك ونبالك مسمومة ويسقط عند الأمم " .

فأي نبي كان على الأمم جبارا ولهم بإذن الله قتالا إلا نبينا صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك آخر التوراة : " جاء الله تبارك وتعالى من سيناء وأشرف من ساعير واستبان من جبال فاران ، وجاء عن يمينه ربوات القديسين " ، وتفسير هذا أن الله عز وجل أنزل التوراة على موسى في طور سيناء ، وأنزل الإنجيل على عيسى عليه السلام ، في جبل ساعير وهو جبل بالشام ، وأنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في جبال فاران وهي بلاد مكة ، وأنتم تجدون ذلك في كتبكم مكررا وتعرفونه جميعا بلغتكم .

ومن ذلك قول الله عز وجل لموسى عليه السلام " سأقيم لهم من إخواتهم مثلك أجعل كلامي على فهمه ولا يتكلم إلا بما آمره به " ، فمن إخوة بني إسرائيل إلا بنو إسماعيل ؟ أما تعلم أن لو كان الله عز وجل يعني أحدا منهم لقال لهم : أقيم لكم نبيا منكم !

---

[9] في الأصل : " من أجل ذلك بار كل الدهر ، واستعنا في تصحيحها بالكتاب المقدس الذي وردت فيه الجملة هكذا : " وقد انسكبت النعمة على شفتيك فلذلك باركك الله إلى الأبد " ، أما الباقي فلم نوفق إلى تصحيحه فأثبتناه كما ورد بالأصل .

فإن قلتم إنما قال من إخوتكم ، وهو يريد من أنفسكم ، فهب أمير المؤمنين قبل هذا الخلف منكم ووسع في هذا المجال لكم ، فكيف تصنعون بقول الله عز وجل في التوراة : " مثل موسى في بني إسرائيل لا يقوم " فهل تجدون من هذا مخرجا ومن الإيمان أن المعنى وقع على محمد صلى الله عليه وسلم بدا .

ألا تسمع قول الله عز وجل : " أجعل كلامي على فمه كي يعنى به أمي لا يقرأ ولا يكتب " .

أو ليس قد أمر عيسى عليه السلام حوارييه أن يقولوا في صلواتهم ، " يا أبانا الذي في السماء تقدس اسمك " . كيف صار عيسى دونهم ابنا وصار له دونهم أبا ، وهم يقولون :يا أبانا ! أم كيف لم يجعل سليمان بن داود إلها ، وقد قال الله عز وجل لداود : " يولد لك غلام يسمى لي وأسمى له " ! ولم لا يجعلون إسرائيل إلها وقد قال الله عز وجل له : " أنت بكري " ، بل لم لا يسمون المؤمنين عامة والحواريين خاصة آلهة ، وقد قال المسيح للحواريين ، أنتم إخوتي ، وقد قال في الإنجيل : " أعط كل من آمن بي سلطانا يدعى له " ، وإن كان هؤلاء كلهم للمسيح إخوة أفلا تجعلونهم كلهم آلهة ، وكيف تقولون : إن عيسى ابن الله ، وهو يقول في مواضع جمة وأماكن كثيرة إنه ابن الإنسان فكيف يكون ابن الإنسان ابن الله ؟ ومتى كان ذلك ؟ لئن قالوا : إن عيسى لم يزل ابن الإنسان ، لقد جعلوا مع الله إنسانا قديما وجعلوا الله إنسانا حديثا ، وجعلوا المسيح ابن الله لم يزل ، وابن الإنسان فيما حدث ، وهذه أمور متناقضة ، وحجج داحضة ، وأقاويل فاحشة .

فإن قالوا : إنما نعبد المسيح لأنه رفع إلى السماء فليعبدوا الملائكة فإنهم في السماء قبله ، وإدريس فقد رفعه الله وغيره ، وإن كانوا يعبدون المسيح لأنه لم يخلق من ذكر فآدم وحواء لم يخلقا من ذكر ولا أنثى ، ولم يقعا ، من غم الرحم وضيق البطن

وحال الصبا فيما وقع فيه المسيح .

وإن قالوا : إنما نعبد عيسى لأنه أحيا الموتى ، فما أحيا حزقيل أكثر، وما كان من اليسع تلميذ إلياس أعجب لأنه أحيا الموتى بعد مئين من السنين ، وإن طلبتم ذلك في سير الملوك عند قصة اليسع أصبتموه إن شاء الله .

وإن كانوا إنما يعبدون المسيح من أجل الأسقام التي أبرأ العجائب والتي أرى ، فعجائب موسى أعجب وآياته أعظم أين ما ذكرت لك من عجائب عيسى من عجائب موسى من انقلاب البحر له ، وسلوك الجيش معه ، أم أين ذلك من حجر يضربه فيتفجر بعيون الماء ، ويحمله معه حيث شاء ؟ بل أين تلك وهذه غير هذه من الآيات من حبس يوشع الشمس ثلاث ساعات وكل ما صنع موسى وعيسى وغيرهما بإذن الله وأمره وقدره وقضائه ، فاتق الله وكن من القائلين بالحق الموحدين للرب ، ولا تقل على عيسى ما لم يقل فإنكم لا تجدونه قال لكم في شيء من كتبكم : اعبدوني فإني ربكم تعالى الله عما يقولون الظالمون ، ويذهب إليه الجاحدون .

وإن أمير المؤمنين قد أحب أن ينصح لك في أولى داريك بك وأهم شأنيك لك ، فدعاك إلى الإسلام وأمرك بالإيمان الذي به تدخل الجنة وتنجو من النار، فإن قبلت فحظك أصبت ، ونفسك أحرزت ، ولك ما للمسلمين ، وعليك ما عليهم ، وإن رددت نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه الحظ في آخرتك ، فإن أمير المؤمنين ينصح لك فيما فيه الصلاح في عاجلتك : من إعطاء الجزية التي يحقن الله بها دماءكم ويحرم بها سباءكم ، ويجعلها قواما لمعاشكم ، وصلاحا لبلادكم ، وتوفيرا لأموالكم ، وأمنا لجنابكم ، وسعة لسربكم وبركة على فقرائكم ، وغنى لأهل الحاجة والفاقة والمسكنة منكم .

ولن يذكر أمير المؤمنين في الجزية لكم من حلول الأمن فيكم وعموم العافية إياكم ، واستقامة البركة عليكم ، وكف أيدي المسلمين عنكم ، وبسطها على الأعداء منكم

شيئا إلا وفي قليل ما كان من أشباه ذلك أيام تلك الفدية التي كان الله أجرى نعمتها لكم على يده ، وفتح بركتها عليكم من قبل ، ما يدلكم على صدق أمير المؤمنين فيما يذكر ، ويشهد له على حقه فيما يقول إن شاء الله . فقد تعلمون أن الله قد أدخل على كل طرف من أطرافكم ، وصنف من أصنافكم بتلك الفدية أمورا عظيمة البركة ، واسعة المنفعة في أمور غير واحدة .

منها : أن قادة جنودكم وساسة حربكم كانوا بعد وقوع أمرها واستحكام عقدها فراغا لمحاربة أعدائكم ومناصبة من ناوأكم بين أن يستعجموهم في بلادهم وينزلوا عليهم في ديارهم ، ولا يرهبون تعقب بشر إن ساروا في أرضهم ، ولا يتخوفون طرادا إن اجتمعوا لقتالهم أن يقيموا في خفض ودعة وأمن وسعة مع الأزواج والأولاد والعيال والأوطان والرباع والمحال وهم اليوم يترقبون الجيوش من كل شعب ويتخوفون الحتوف في كل وقت لا يهدأ لهم جأش ، ولا يسكن لهم فزع ، ولا ينام لهم ليل ، ولا يأمن فيهم حال قد قطعت الهموم دابرهم ، وأضمرت المخاوف جنوبهم ، واستأصلت الجنود أموالهم .

ومنها : أن أهل الحراثة وإخوان العمارة في بلادك وأطراف أرضك كانوا سراعا إلى عمارة أرضهم وإصلاح ما تحت أيديهم ، فيما لا قوام لهم ولا لمعاشهم إلا به ، ولا بقاء لدينهم إلا معه ، قد أمنوا الجيوش ومعرتها والجنود وبادرتها ، وانتشروا للعمارة ، وابتكروا في الزراعة ، فارقوا رءوس الجبال وإقحام الغياض ، وراحوا في أواسط أوطانهم وظلال محالهم ، يشققون الأنهار ، ويغرسون الأشجار ، ويفجرون العيون ، حتى نمت الأموال واخضرت الحال ، وأخصب الجناب ،وأصبحوا اليوم عن الزراعة ممتنكين ، وللحراثة تاركين ، وبغيرها مشتغلين في إصلاح آلات الهرب ، وإحراز العيال في الحصون ورم القلاع للجلاء وتحريش الحصون للبلاء ، قد انتقلوا عن

منابت البر وكرائم الأرض ، ومجاري المياه ، إلى أوشال الجبال ، وأشجار الغياض ، وبطون الأدوية . فليس يبلغون من عمارة بلادهم ولزوم أوطانهم و من تناول ثمارهم وقوام معاشهم مثل ما كانوا يبلغون ، ولا ينالون من خفض العيش وطيب الأمن ولذة الدعة قريبا مما كانوا ينالون .

ومنها : أن إخوان التجارات ، وأصحاب الأموال وأهل الظلف والحافر ، كانوا يتناولون ما شارفهم من بلادنا وما قاربهم من أسواقنا ، فينفقون تجاراتهم ويغلون بضائعهم ، فتعظم الأرباح وتضعف الأثمان ، وكانت الباعة من تجار المسلمين وغيرهم من الذميين ، يتناولونهم للبيع لهم ويتناولونهم للشراء منهم ، فعمت البركة وسهلت المنفعة ،حتى نالت الرعاء في جبالها وأقيالها والنساء في غزولهن وعمل أيديهن فضلا عن غيرهن .

ومنها : أنك ومن قبلك من ذوي العبادة والزهادة ، والتأله والنسك والنيات كنتم على عافية من أيام الرضا بالحرب ، وسلامة من أوزار الحض على قتال الخوف ، قد نجوتم من معصية المسيح في الدنيا التي نهاكم عنها ، والأمور التي أمركم بها ، من نحو قوله : " من لطم خدك الأيمن فأمكنه من الأيسر : ومن انتزع قميصك فأعطه كساءك ، ومن لطمك فاغفر له ، ومن شتمك فأعرض عنه ".

ومنها : أن من بأقاصي بلادك ونواحي حوزتك ، قد ذاقو تلك الأيام من لذة الخفض ، ودعة الحال ، وحلاوة الأمن ، ورفاهية العيش ، وسعة العافية من سباء أزواجهم ، وهيض أولادهم ، وحطم معاشهم ، وأسر رجالهم ، وغنيمة بقرهم وغنمهم ، وإفساد شجرهم وثمارهم ، وإجلاء عن مساكنهم وأوطانهم ، ما لم يكن لهم رأي يعرفه ، ولا ظن يبلغه ، و لا طمع يقاربه ، ولا أمل يذهب إليه ، وما قد عرفت الخاصة من بطارقتكم ، والعامة من أهل ملتكم به ، من رأفتكم بهم ، ورحمتكم لهم ، وشفقكم

عليهم ، وأثرتكم إياهم ، وبركة ولايتكم ملكهم ومنفعة سياستكم أمرهم ، ما قد ازدادوا لكم به محبة ، وفي بقائكم رغبة ، ولأمركم طاعة ، وعلى ملككم شفقة ، وفيما نابكم نصيحة مع ما قد ازددتم بذلك من الهيبة في صدور الأعداء ، والشرف في قلوب النظراء ، والعظم في عيون الأمم ، حتى أقروا لكم بقوة عزائم العقول ، وفضل سياسة الأمور وصحة تدبير الملك ، وصدق النية ولطف الحيلة التي جعلوا نسبة عملكم بها ، ومحل رأيكم فيها على أنكم نظرتم لضعفائكم حتى قووا ، ولفقرائكم حتى استغنوا ، ولقرابكم حتى بينوا وحيوا وقووا المسلمين من أيام الحروب وأوزار القتال ، ومعصية المسيح عليه السلام ، ولأعدائكم الأبعدين وجبرتكم الأقربين ، حتى كنتم من فراغكم لهم ، وأشغالكم من أمركم بها ما أوطأتموه لحر يبحر [١٠] القتل ، وذل الأسر وغلبة القهر ، والإذعان والاستسلام ، وإما كفيتموهم بالصلح ، واستوثقتم منهم بالرهن .

فإذا ذكرت ما كان من هذا وأشباهه وأمثاله في الفدية ، فاعلموا أن أمثاله وأضعافه مقيم معكم في الجزية فلا يكونن لك رأي غيرها ولا أمر سواها ، فلقد أكثر أمير المؤمنين العجب من أمركم ، وأطال تقليب الفكرة في بعضكم فظن أن إخراجكم من جميع ما كنتم فيه إلى خلافه مما أصبحتم عليه من انتظار وقعات الحروب ، وصولات الجنود وأكل الحدود ، وتوقع الجلاء والسباء والقتل ،والأسر والحصر شيئا اختدعكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم وكيدا استدرككم به لما علم من قلوبكم .

إلا أن أعجب عذركم وأفظعه كان عند أمير المؤمنين إذ بلغه جرأتكم على الله عز وجل في نقض عهده ، واستخفافكم بحقه في خفر ذمته ، وتهاونكم بما كان منكم وأنتم تعلمون أن مواثيق العهود ونذور الأيمان الذي وضعه الله عز وجل حرما بين ظهراني خلقه ، وأمانا أفاضه في عباده ، لتسكن إليه نفوسهم ، وتطمئن به قلوبهم ،

---

[١٠] هكذا في الأصل

وليتعاملوا به فيما بينهم ، ويقيم به من دنياهم ودينهم فما من ملك من الملوك ولا أمة من الأمم تبيح حمى الله عز وجل تهاونا به وجرأة عليه إلا أجرى الله عليهم دائرة من دول الأعداء ، وأنزل عليهم عذابا من السماء ، وقد رجأ أمير المؤمنين أن يجري الله نقمته منكم بأيدي المسلمين بعد إذ كان اعتقد عهدكم ، وأخذ ميثاقكم بالأيمان المغلظة والعهود المؤكدة التي قد اعتقدها في رقابكم ، وحملها على ظهوركم ، فأشهدتم الله بها على أنفسكم ، وتسامع بها من حولكم ، وحكم بها بطارقتكم وأساقفتكم ، فلا الله اتقيتم ، ولا من الناس استحييتم نكثا للعهد ، وبغضا للمسلمين ، وخترا بالأمانة ، وإباحة للحمى ، فتوقعوا العقوبة ، وانتظروا الغيب ، فلقد وثق أمير المؤمنين أن من عذاب الله ما هو حال إن شاء الله بكم .

ومن أسباب ما يريد الله من الانتقام منكم ، ما أزمع أمير المؤمنين وعزم عليه ، وقذف الله في قلبه ، من الإرادة والنية والرغبة في إيطاء الجيوش بلادكم ، واستباء المقاتلة أرضكم والتفرغ لكم من كل شغل ، والإيثار لجهادكم على كل عمل ، حتى تؤمنوا بالله وأنتم طائعون أو كارهون ، وتؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، فكونوا على عدة من الجزية ، ويقين من الانتجاع الذي لا طاقة لكم إن شاء الله به ولا صبر لكم بإذن الله عليه ، فإن جنود أمير المؤمنين فارغة كثيرة ، وخزائنه عامرة وافرة ، ونفسه سخية بالإنفاق ، ويده مطلقة بالبذل ، والمسلمون نشاط إليكم ، منقلبون عليكم قد عودهم الله في لقائكم عادة يرجون انتظار مثلها ، وأبلاهم في قتالكم بلاء من أمثالها ،إن شاء الله وكتاب أمير المؤمنين نذيره بين يدي جنوده ، ومقدمه إن شاء الله من جيوشه ، إلا أن تؤدوا الجزية عن التي دعاك أمير المؤمنين إليها ، وحداك ومن قبلك عليها رحمة للضعفاء الذين لا ترحمهم ، وتوجعا للمساكين مما لا توجع منه لهم من الجلاء والسباء والقتل والأسر والقهر ، وقساوة من قلوبكم وأثرة لأنفسكم ،واعتصاما بخواصكم ، وإجلاء لعوامكم الضعفاء الفقراء المساكين الذين لا تمنعونهم

بقوة ، ولا تدفعون عنهم بحيلة ، ولا تراقبون في الرحمة لهم والتعطف عليهم ، أدب المسيح إياكم ، وقوله في الكتاب لكم : " طوبى للذين يرحمون الناس ، فإن أولئك أصفياء الله ونور بني آدم " .

وايم الله لو يعلم من قبلك من المساكين والزراعين والفقراء والضعفاء والعملة بأيديهم ما لهم عند أمير المؤمنين لتحدروا عليه وأقبلوا إليه من إيوائهم ، وإنزالهم الأرض الواسعة ، وإمكانهم من مسايل المياه السائحة ، والعدل عليهم بما لا تبلغه أنت ولا تقاربه رفقا بهم ونظرا لهم وإحسانا إليهم مع تخليته إياهم وأديانهم لا يكرههم على خلافها ولا يجبرهم على غيرها لاختاروا قرب أمير المؤمنين على قربك ، وجواره على جوارك ، ولأنقذوا أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم مما يحل بهم في كل عام ويلقون من كل غزاة ، فاتق الله وأقبل ما عرض عليك من الجزية ، ولا يمنعنك ما فيه الحظ لك ولأهل مملكتك ، ونحن على رجاء أن الله لا يؤخر ذلك منكم ، ويدفعه عنكم ، إلا ليجعله على يد أهل بيت النبوة والرحمة ، ولأهل الوراثة فيهم للكتاب والحكمة الذي لا يدخل عليكم في الإذعان لهم وأداء الجزية إليهم حمية ولا نقيصة ولا عار ، والذين يفون لكم بما يعقدون ويتبعون فعلهم ما يقولون .

ثم أمير المؤمنين بخاصة لما جعل الله عليه رأيه وفيه نظرة من البر والرحمة والإقساط والوفاء بالعقود والعهود والشروط ، نظرا لدينه وخوفا من ربه ، ولما قذف الله في قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأثرة ، ولما جعلهم الله عليه من اجتماع الكلمة ، واتفاق الأفئدة ، والنصائح في السر والعلانية ، وما عوده الله ممن نصب له بمجاذبة ورماه بمكايدة ، وعراه بحيلة من النصر العزيز والفتح القريب ، والظفر المبين ، فابذلك من الحرية ما شئت ، وسم منها ما هويت ، واعلم أن أمير المؤمنين ليس يحدوك عليها لحاجة به إليها ولا للمسلمين ، ولكن طاعة لربه ، وأثرة

لحقه ، وليجعلها سببا لما يريد أن يجري فيما بينه وبينكم ، وإنه إنما كان قبول المهدي - رحمه الله - الفدية منكم بطلبة أمير المؤمنين كانت إليه ، والحاجة كانت فيها عليه ، ولم يكن من رغبة فيها ، ولا حاجة إليها ، ولا استعظام لها ، ولقد كان يعطي في المجلس الواحد مرارا أمثالها ، ولكن ذلك كان رأي أمير المؤمنين يومئذ فيكم ، فأما اليوم إذا استبان له غدركم ونقضكم ونكثكم واستخفافكم بدينكم وجرأتكم على ربكم ، فليس بين أمير المؤمنين وبينكم إلا الإسلام أو الحرب المجلية إن شاء الله ، ولا حول بأمير المؤمنين ولا قوة إلا بالله ، عليه يتوكل ، وبه يثق ، وإياه يستعين ، والسلام على من اتبع الهدى .